الفصل السابع

الرسول ﷺ والقوة

من خلال دراسة حياة رجال الحرب ومقارنتها بجهاده ﷺ يبدو لنا أنه ﷺ جمع بين مؤهلات الجهاد وما تقتضي من سمات جسمية وعقلية ونفسية وعاطفية، وبين نظرة فريدة تزن الأمور وتحكم على الأحداث بميزان العدل والرحمة والصدق والخلق الثابت، دون التأثر بالحساب الدنيوي الخالص ومقتضيات المنافع القريبة، ومن هنا تبدو نبوته ﷺ بيّنة لكل ذي عينين، وسنحاول في هذا الموضوع بيان الحد الأعلى من السمات في رجال الحرب ومدى اجتماع تلك السمات فيه ﷺ، ونعقب ذلك ببيان امتيازه على الآخر، معتذرين عن الاستقصاء التام للموضوع، مكتفين ببعض الأمثلة والشواهد التاريخية على ما نذهب إليه، لضيق المجال عن استيعاب سائر ما يتصل به.

النبي ﷺ ومستلزمات الجهاد

نعرض هنا مدى وجود مقتضيات إمارة أو إدارة الحرب أو «الحد الأعلى منها» في النبي ﷺ.

1 - التفاؤل: أي أن يكون متفائلاً يسري تأثيره في أتباعه:

لقد كان ﷺ موهوباً بهذا التفاؤل والثبات والثقة بالنفس حتى في أعسر الحالات وأعقدها؛ فأثناء الهجوم الثلاثي الكاسح الذي قامت به «قريش -

يهود - غطفان» على مدينته الآمنة الخالية من التحصينات العسكرية والحاميات؛ إذ ضرب الأعداء حصاراً شديداً على المدينة، ورأى أحد الصحابة حفر خندق يحتمي وراءه الجند فعمل برأيه، ولكن موقف المسلمين بدأ يضعف تدريجياً من أثر الحراسة والترقب والحذر والحصار المالي المفروض. . وحين كانت أعمال الحفر مستمرة كان الرسول ﷺ يشارك فعلياً فيها، ونذير الموت على يد هذه الفرقة المعادية على الأبواب؛ إذ لا قوة دولة أو قبيلة خلفيّة تحميهم، ولا فئة تؤمّن لهم الانسحاب، ولا دولة محبة تضمن لهم البقاء بعد الانسحاب، إنما يحيطهم العدو من خلف ومن قدام. ولكن لم يستسلم الرسول ﷺ، وأيده الله سبحانه بريح وجنود لم يروها.

2 - العزم الأكيد

أن يكون لديه الثبات في وجه العسرة، وأن يبعث الثقة في الأنفس حتى عندما لا يكون هو واثقاً وثوقاً تاماً بالعاقبة.

لقد كان ﷺ كلّما اشتد عليه الكرب، وحميت أمامه الحرب، وغابت عنه علائم النصر والفوز، وبدت له مظاهر الفشل، بنفس عزيمته، ويقينه بالنصر أكيد، عكس من تخور قواهم عند انهزام جموعهم، ويفقدون ثقتهم بأنفسهم حين تغادرهم عددهم وجنودهم إن لم يكونوا أول الفارين وطليعة للمنهزمين!. وأصيب في (أحد) إصابة بالغة، وكسرت رباعيته[1]، وتفرق عنه كثير من أصحابه، وهو ثابت، يثير العزم، ويستنهض الهمة، وماذا عليه إن مات أو قتل؟ وما هو: ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: 144]؟ المراد هو أن يقوم بما عهد إليه.

(1) أخرجه البخاري في المغازي، باب ما أصاب النبي من الجراح يوم أحد، رقم: 4073، ومسلم في الجهاد والسير، باب اشتداد غضب الله على من قتله رسول الله رقم: 1793.

وموقفه في غزوة حنين خير شاهد على ما نقول؛ إذ أنّه ﷺ لما رأى تراجع المسلمين في بدء المعركة التفت حوله فلم يجد إلا نفراً، وهل يصدّ نفر من الرجال زحف جيش عنيد؟! فماذا يحكم ﷺ في ذلك الموقف العصيب؟ أينسحب لايلوي على شيء فينجو بنفسه، ويعد العدة للقاء قادم؛ فالأمر قد خرج من يديه ظاهراً؟ ولكن أليس هو نبياً لايليق به الفرار لأنّ الله سبحانه معه؟.

قال البراء: «كنّا والله إذا احمرّ البأسُ نتقي به»[1].

وأمر عمه العباس أن ينادي أصحاب السمرة «الشجرة» التي بايعوا عليها بيعة الرضوان»، ثم الأنصار وبني الحارث بن الخزرج بصوته الهدار فتجاوبت معه تلبيات، وسرعان ما تجمعت الجموع المؤمنة، وأرغم العدو على الفرار[2]. هذا ليس إلا موقف النبوة لا موقف من يريد الدنيا ومن يريد أن يعمر أطول للتمتع بها، أو من يود أن يفتدي من الموت بكل ما تصل إليه يده.

إنّ هذا الموقف لايقفه عملياً من يتخير لنفسه آمن المواقع وأحصنها في الحرب، ولا يعلن قائد من الناس عن نفسه في مثل تلك الظروف الحرجة، لكونه هدفاً عزيزاً يحرص الأعداء على نواله، ولأن القائد العادي (غير المرسل) يقدم الضرورة الحربية على الأمور (الغيبية)، التي يعدها الأنبياء مؤثراً فعالاً في كسب النصر، فالأنبياء عليهم السلام لا يقيّمون الموقف الحربي بالنظرة المادية الجزئية والرؤية الناقصة إلى ميدان القتال وقواه فقط، بل إنهم بحكم عبادتهم ودعائهم الله رب العالمين قادرون على استشفاف النصر وراء مظاهر الضعف والقلّة، متأكدون بأنهم لا يقاتلون وحدهم، إنما يدافع عنهم من له جنود السمٰوات والأرض.

---

(1) رواه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين 1776 إلى 79.

(2) الحديث في ذلك أخرجه مسلم في الجهاد، باب في غزوة حنين رقم: 1775، وأحمد في المسند (1/ 207).

3 - صواب الحكم

على رجل الحرب أن يكون ذا حكم صائب في الأمور ليثق الناس به:

ولولا ما كان له من حكم صائب في الأمور المعروضة لما كسب تلك الثقة، ومن مظاهر تلك الثقة تدافع الفئات والدرجات ذات المستويات العقلية والعملية المؤمنة به إلى افتدائه وقبول حكمه حتى على أنفسهم وفئاتهم مع ما قد يكون فيها - ظاهرياً - من الأذى النفسي والجسمي والنقص الظاهري للمال، ؛فحين أمر أصحابه مثلاً بمقاطعة ثلاثة من الجند لتخلفهم عن الحرب في تبوك لم يكن منهم إلا أن أطاعوه، وقد مثّل الندوي الأمر بهذا الوصف التقريبي: «وأصبحت المدينة لهؤلاء وكأنها مدينة الأموات ليس بها داع ولا مجيب»[1]، وينقل أحد أولئك الجنود لنا صورة وصفية مؤثرة تكشف مدى طاعة المؤمنين والتزامهم بأمر النبي ﷺ فيقول: «تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف.. حتى إذا طال عليّ من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله! ما ردّ علي السلام فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أني أحب الله ورسوله ﷺ؟، قال: فسكت. فعدت له فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله ﷺ أعلم. ففاضت عيناي وتوليت، حتى تسوّرت الجدار»[2]. هل رأيتم طاعة بهذه الدرجة وثقة بأمر الرسول ﷺ كهذه الثقة؟

---

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ السيد أبو الحسن الندوي، ص: 105.

(2) متفق عليه. اللفظ للبخاري، باب حديث كعب بن مالك، حديث رقم 4418.. ومسلم في التوبة، باب: حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه، رقم 2769.. انظر تكملة التخريج في كتاب صحيح السيرة النبوية، ص: 614، إبراهيم العلي، دار النفائس، ط4، سنة 1999، عمان.

صديق أحدهم وابن عمه وحبّه لا يرد سلام مثيل له، ولا يكاد يجيبه إلا جواباً مقتضباً بعد الاستعطاف الشديد، لأنّ الرسول ﷺ أصدر أمراً بمقاطعته، مع أنّه ﷺ لم يكن موجوداً في ذلك الحين، وكان المجلس خلواً لا يراهما فيه أحد يخشى منه أن ينقل المحادثة له ﷺ!.

وعندما قسم ﷺ غنائم الحرب وفقاً للعدل بعد هزيمة (هوازن) خصّ بأكثرها المؤمنين الجدد الذين اتبعوه، وحرم منها الأنصار الذين كانوا قوته الرادعة في كل لقاء عسكري، فحزن الأنصار في أنفسهم، وعرف الرسول ﷺ ذلك فأقبل يبيّن لهم دوافع عمله، وكان أن علم الأنصار حكمته ﷺ التي لم تغب يوماً ولم تخب، فغمرت قلوبهم ثقة وتعاطفاً ورضى[1].

4 - الحلم

كان محمد ﷺ مثالاً للرحمة والحلم، والأمثلة على ذلك كثيرة: منها قول رجل عن قسمته أنّه: «ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله»، فأي رجل يواجه بالافتراء يعاقب، وقد تتقاذفه اللطمات والوكزات، لكنّ الرسول ﷺ روي عنه أنه قال: «**يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[2].

5 - العلم بالإنسان:

رجل الحرب عليه أن يكون على علم بالإنسان، وأن يحسن اختيار الرجال، ويكون خبيراً بدخائل الناس وأخلاقهم.

أما علم محمد ﷺ بالنفس فقد كان علماً واسعاً عميقاً، وكمثال على ذلك العلم ما رواه ابن عمر في كيفية مبايعة المؤمنين للنبي ﷺ: «كنا إذا بايعنا

(1) أخرجه البخاري برقم: 4334، ومسلم برقم 1059، 133.
(2) أخرجه البخاري برقم: 4336، ومسلم 1062.

رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا: فيما استطعت»[1] وذلك يبين مدى علم الرسول ﷺ بحدود طاقة الإنسان وضعفه مما قد يكون منه نقص بفعل الظروف النفسية والخارجية المؤثرة. . .فهو لا يحمّل من يتبعه ما لا يتحمله الإنسان عادة، ولا يعنفه على خطأ بدر منه على غير قصد أو تعمد، بهذا العلم العميق بالفطرة ضمن الرسول ﷺ التوازن للعامل معه حين أمّن إطلاقه لمواهبه المستطاعة، وغضّ الطرف عن ضعفه.

أما حسن اختياره للرجال من المسؤولين ومعرفته بدخائل الناس وأخلاقهم، فالتاريخ خير شاهد عليه، فجميع المكلفين بالعمليات الخاصة والمأمورين على السرايا الذين رشحهم لمهامهم قد وفقوا وأفلحوا في أعمالهم، ولم يرجع أحدهم خاسراً أو فاشلاً أو مغلوباً. . أما في غزوة مؤتة فقد تنبأ سلفاً بمقتل قائد جيش المسلمين فرشح اثنين يخلفانه تباعاً، وكأنّه يتنبأ بمقتل الثلاثة!.

وكان ما تنبأ به وأخبر به أصحابه صدقاً. . . ولم يكن مقتل الرجال الثلاث عجزاً منهم أو قلة كفاءة وجدارة بل قد يكون سببه عدم وجود التكافؤ بين الفريقين، وتحول المعركة إلى ملحمة شهادية وعملية فدائية تنطوي على حكم شتى! بلى لقد كان ﷺ ببصيرته النافذة وخبرته المحيطة بمعادن الرجال ومواهبهم يعرف قدر كل رجل وموهبته، فهذا أبو ذر مع صرامته في قول الحق يأتي النبي ﷺ طالباً توليته مسؤولية سياسية فلا يوليه إياها لأنها تتطلب مواصفات معينة يدرك ﷺ عدم توفرها في شخصه، فيقول له: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**».

---

(1) رواه البخاري، كتاب فرض الخمس باب ما كان النبي يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه برقم 3150، ومسلم 1062، حياة الصحابة للكاندهلوي. ج1، ص: 244، والحديث متفق عليه.

6 - حياة فوق الشبهات:

أما حياة محمد ﷺ فلم يشك فيها عدو ولا صديق، صدق لهجة، وأمانة وثق بها أعداؤه، صلاته وعلاقاته بالناس كانت لا خفاء فيها، حياته علانية مكشوفة للصاحب والبعيد والتابع والغريب، والقرآن يذكر خصوصياته، وحياة الصحراء المكشوفة قليلاً ما تخفي سراً أو تكتم أمراً.

7 - العلم باللسان واللغة الأصلية للجنود:

إنّ بعض سمات تسيير الجنود هي في غاية الأهمية ومنها العلم بلسانهم ولغتهم علماً تاماً.

ولقد ثبت تاريخياً أنّ الرسول محمد ﷺ كان عالماً باللهجات العربية المتنوعة فضلاً عن تمكنه من لغته الأصلية تمكناً عجيباً، فكان يرسل الرسائل إلى القبائل العربية بلهجاتها ومفرداتها المتميزة، كما كان يخاطب الوفود التي تأتي لزيارته والإيمان بدعوته بألسنتها وبلغاتها ولهجاتها الخاصة.

8 - **أمور أخرى**: وقد ذكر العقاد أموراً من براعة الرسول ﷺ العسكرية، كمبادرته إلى القضاء على قوة العدو العسكرية، وعدم الاهتمام باقتحام المدن، وزيادة إيمان الجنود أو ما يسمى بـ «القوة المعنوية»، والتركيز على الحرب المالية، وإضعاف اقتصاد العدو، والشورى، وكذلك إرساله السرايا والبعوث لفرض هيبته العسكرية.

امتياز العمل النبوي

1 - التوقيت:

القادة تصنعهم الأحداث المثيرة، ويصقل مواهبهم الإعداد السابق، والنبي ﷺ برز فجأة بأمر من الله تعالى، يقول: «مونتغمري»:

«إنّ القادة يُصنعون أكثر مما يولدون»[1]. . ويقول: «إنّ القادة العسكريين العظام في التاريخ كانوا قلائل على العموم، وكان يقتضي نشوب حرب لظهور هؤلاء، وقد برهن بعضهم على عظمة بعد تدريب قليل جداً، وكان من ظواهر التاريخ العجيبة على مر العصور أنّ الحوادث هي التي صنعت الرجال»[2]. ويقول: «لم يكن للعمر غير تأثير قليل، فقد جاءت الفرصة مبكرة لفريق منهم ومتأخرة للآخرين»[3]. . وخلاصة أقواله أنّ الحرب تقتضي سمات فطرية، وأنّ وقوع حرب ما كان كفيلاً بإيقاظ مواهب الرجل وتحضيره لأداء دوره، ولكنّ حالة محمد ﷺ تميزت عن أحوال غيره؛ فهو وإن كان يملك مواهب موروثة لولاها لما استحق مقام الأمر الحربي ولما نجح فيه فإنّ الحوادث أو القدر الكوني المجرد لم تصنعه وتضعه في مقامه، إنّما الله ﷻ؛ فحين وقعت حرب الفجار بين قبيلة قريش التي ينتمي إليها الرسول ﷺ ويفخر بمكارمها، وبين قبيلة عربية أخرى مغيرة عليها، لم يشارك الرسول ﷺ فيها إلا جندياً عادياً، فلماذا لم تظهر مواهبه الحربية التي لا شك في توفرها فيه مع أنّ عمره كان (20) سنة حيث فتوة الشباب وحماسه اللاهب، وقد برز من

(1) السبيل إلى القيادة.
(2) المصدر نفسه، ص: 38.
(3) المصدر نفسه.

الجانب القريشي البعض، وتشكلت للدفاع هيئة عامة كان بإمكانه أن يساهم فيها؟ ثم لماذا لم تظهر موهبته ﷺ بعد احتكاك المعارضة به وبأصحابه في مكة وقيامها بالأعمال الاستفزازية والعدوانية ضدهم، إنما ظهرت في سن متأخرة جداً أي عندما كان عمره أكثر من (52) في السنة الثانية للهجرة، وكأروع وأقوى، وبدون أي تدريب سابق بعد نزول أمر القرآن عليه برد العدوان؟ إنه التوقيت من ربه الذي بيّن له ساعة الظهور، وإنها إرادته التي كفته عن ممارسة أي عمل عسكري أو إمارة تشكيلات سياسية أو حربية، أو إثارة مبارزات فردية، أو المنافسة على أمور زعامية، مع أنّ المواهب العظيمة تتفجر منذ الصغر، ثم تصقل وتنمى بتجارب الشباب، ثم يبحث صاحبها بإلحاح عن المجالات التي يبرزها فيها إن لم نقل يوجدها بالاحتكاك المستمر والإثارة الدائمة للآخر الذي يتعامل معه في حياته ليحقق بها أو على حسابها طموحاته ومواهبه العسكرية والسياسية. فنابليون مثلاً الذي أصبح أعظم قائد عسكري، هل قهر شمالي إيطاليا سنة 1796م وعمره (27) سنة دون تدريب سابق؟ لا، لقد اندفع منذ شبابه إلى الكلية الحربية وتخرج منها ضابطاً في المدفعية، ثم انتفع من النظريات العسكرية المعاصرة له وطبقها، بعدها شارك في الثورة الفرنسية، ثم ترفع إلى رتبة لواء سنة 1794 وعمره (25) سنة، وفي سنة 1795 أخضع جماعة من الغوغاء الثائرين في باريس.. وأخيراً عهدت إليه قيادة الجيش الفرنسي في إيطاليا.. وكذلك فعل هتلر وديغول وتيتو وستالين وتشرشل ومونتغمري وغيرهم، بل حتى جنكيزخان قد تعلم مهنة الحرب واكتسب مهارته العظيمة فيها من مشاركته في الحروب القبلية التي قضى فيها (40) سنة من عمره من سن (13 إلى 53) سنة.

2 - رحمة النبي ﷺ في الحرب:

إن القادة لم ينفكوا عن وحشية وإشاعة الدمار في البلاد التي يفتحونها أو

يخضعونها أو (يحضرونها!).. فجنكيزخان مثلاً أهلك (18) مليوناً في الصين وحدها، ثم يصفه قائد عسكري: «يمكن القول أن وحشيته كانت منطقية فقد كانت تستهدف إضعاف إرادة العدو على القتال وإثارة الحماس في أفراد قبائله القساة الوحشيين في الوقت نفسه... إنني أضع هذا القائد المغولي جنكيز خان في الصف الأمامي للجنود العظام وأعده قائداً عسكرياً من أعلى طراز!»[1].

والأخلاق في قاموس الأرض يقول تشرشل عنها: «في الوقت الذي تلتهب فيه الحرب الكونية حولنا جميعاً، كان من العبث أن يتحدث الإنسان عن الأخلاق ويجهر بحديثه»[2]، وهو الذي قال في معرض الدفاع عن استعمال القنبلة الذرية التي قتلت أكثر من (300) ألف في هيروشيما و(73884) إنسان في ناغازاكي: «بدا لنا أن تجنب مذبحة هائلة لا حدود لها، وأنّ الوصول بالحرب إلى النهاية وبالعالم إلى السلام، وأنّ مد يد الشفاء إلى شعوبه المعذبة عن طريق عرض لقوة طاغية لا تكلف إلا بعض انفجارات كلها أمور جاءت بعد هذه الأخطار والمتاعب كمعجزات الإنقاذ!»[3]، فإذا كان زعم قتل الآلاف من المدنيين الأبرياء بالجملة معجزة فما أرهبها!.

أما معاملة المنتصرين للأسرى فاقرأ عنها هذا المثال من معاملة الألمان لأسرى الحرب: «كانوا يموتون بمئات الألوف موتاً بطيئاً بسبب الجوع والأمراض، وقد اقترح الماريشال كيتل أن يوسم الأسرى بالحديد المحمي، كما أوصى الماريشال فون مانستين بعدم تقديم أي نوع من الطعام إلى الأسرى لأن مثل هذا التصريف في رأيه شعور إنساني منحط»[4].

---

(1) السبيل إلى القيادة، ص: 38.
(2) مذكرات تشرشل، ترجمة خيري حماد، ج2، ص: 716.
(3) المصدر نفسه، ج2، ص: 1082.
(4) الحرب العالمية الثانية، ص: 151، 152.

أما رؤساء الدول المقهورة في الحرب فـ: «يبدو أن المبادىء الأخلاقية للحضارة الحديثة تقضي بأن يعدم المنتصرون قادة الدول المقهورة في الحرب»[1]، فماذا كان موقف النبي ﷺ من ملابسات الحرب وآثارها؟ لقد كان النبي ﷺ أبعد الناس عن إرادة سفك الدماء وأقربهم إلى اللين والعفو والرحمة حتى في أشد حالات الغضب وأوج الانتصارات العسكرية، وكشاهد على ما نقول هو أن عدد المقتولين من الفريقين المتقاتلين «المسلم والآخر» في جميع الغزوات والسرايا والمناوشات التي ابتدأت من السنة الثانية للهجرة ودامت إلى السنة التاسعة ألف وثمانية عشر نفساً «1018 فقط»[2]. بينما قتل الناس بالملايين في الحروب المعاصرة.

أمّا موقفه من الأسرى: فحين بُعث النبي ﷺ، كان استرقاق البشر الذين يؤسرون في المعارك أمراً عادياً في العالم كله، حتى صار الرق أساساً من أسس بناء المجتمعات النفسي والاجتماعي والاقتصادي بل الحضاري، ولم يفكر أحد يوماً في إزالة هذا الحيف عن أسرى الحرب، بل إن أولئك الأسرى كانوا يستسيغون أو يتقبلون ما ينزل بهم من أشكال الإهانة والإذلال ولا يفكرون في إزالتها إلا قليلاً، لقد كانت الأعراف الدولية في حينه تحلّ التصرف في حياتهم وفق أهواء المنتصرين، تبنى بهم الأهرامات، أو يقتلون كالعقارب والحيات، أو يلقون طعاماً للأسود والحيوانات المفترسة ليتمتع القادة العظام برؤية معاناتهم ووخز جراحاتهم، أو يحرقون أحياء. وجاء النبي ﷺ بالعتق «ليصفّي» هذا الوضع الاجتماعي المنفر على مراحل تدريجية وبشريعة مفصلة وتوجه دائم، ولما كان العالم آنذاك لا يستجيب لما دعا إليه، ولا يعامله بالمثل في حروبه المشروعة، اضطر إلى السير وفق ذلك القانون

(1) مذكرات تشرشل، ج2، ص: 1081.
(2) ماذا خسر العالم؟، ص: 204، 205.

العالمي للأسر والأسارى، ولكن أصدر تعليمات «تقدمية» سابقة للزمن في معاملة الأسرى، فاعتبرتهم أولاً إخوة للجنود المنتصرين من المؤمنين «إخوانكم حولكم» فلا داعي لإذلالهم وامتهان كرامتهم، والله تعالى هو الذي جعلهم تحت أيديهم لحكمة عليا «جعلهم (الله) تحت أيديكم»، إذاً فلابد من معاملتهم معاملة الإنسان وبحضارية كريمة: «**فمن كان أخوه تحت يده فلْيُطْعِمْه مما يأكلُ، ولْيُلْبِسه مما يَلْبَسُ، ولا تُكلِّفُوهم ما يغلبهم، فإن كلّفتموهم فأعينوهم عليه**»[1]، الطعام واحد، واللباس واحد، والعمل مشروع مشترك بين الأسير وصاحبه ليعيشا به عيشة كريمة، إذ لم تكن حينذاك ميزانية خاصة للإنفاق على الأسرى بل حتى على رجال الدولة والحرب في بدء دولة المسلمين. . . انظر إلى هذا الأدب وقارنه بما كان يجري في معسكرات الأسرى ومعتقلاتهم في دول أخرى.

أما رؤساء الجيش المقهور فماذا فعل بهم النبي ﷺ؟ لقد دخل مكة منتصراً، ورأى زعماء قريش الذين أوقفوا حياتهم على محاربته، فماذا صنع بهم؟ ألقى القبض عليهم؟ أعدمهم؟ أحرقهم؟ أهان كراماتهم، حاكمهم كمجرمي حرب؟ لا، إن أبا سفيان كان أكبر رؤوس المعارضة وأعلى المراتب العسكرية المعادية له، فماذا صنع به؟ عفا عنه.

3 - حلم النبي ﷺ وغضب القادة:

يغلب على القادة من الناس طابع الانفعال السريع، والغضب الشديد، وقد يكون بعض ذلك بحكم ظروف المعارك العسكرية التي تقتضي اتخاذ القرارات العاجلة، وتنفيذها، وفرضها على المقاتلين، ولمكافحة عوامل

(1) متفق عليه، رواه البخاري برقم 29 كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلّا بالشرك، ومسلم 1661 وغيرها.

السلبية والانهزام والتردد في بعض النفوس الهشة والمتحسبة أكثر من اللازم لمخاطر العمليات القتالية، أو القلوب العنيدة الماردة على العصيان في صفوف الجيش. . ويندر أن تجد من يتحلى بمطلق كظم الغيظ في جميع المواقف الحربية والأليمة والمثيرة فمثلاً: «كان ديغول خلال الحرب سريع الغضب والانفعال في الغالب، وكذلك كان أناس كثيرون غيره»[1] أي من هم مثل عمله، وكان تشرشل: «قليل الصبر، وقد يكون عديم التحمل، وشكوكاً أيضاً»[2]، وكان «آلان بروك» قائد الجيش البريطاني في الحرب الهتلرية:

«سريع الغضب، وعندما يثور حقاً ويهاجمك فإنه يحمل عليك حملة شعواء تترك أثرها فيك»[3].

أما النبي ﷺ القائد فرغم جهاده النفسي في تزكية المؤمنين، وتلقي الوحي من رب العالمين، والصبر على استفزاز المعارضين في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، ورغم تأمره أو تأميره لمجموعة كثيرة من المعارك والسرايا، ومتاعبة المستمرة في عملية بناء الدولة في المدينة في سائر المجالات، رغم كل ذلك، ودون أن يحصل خلال تلك المدة الطويلة على إجازة خاصة، أو يتمتع أثناءها بجولة سياحية، أو نزهة استجمامية، أو سفرة خارجية، فقد بقي محافظاً على رباطة جأشه، وسعة صدره، وجميل صبره، في معاملة أمناء سره، ووزراء حربه، ومستشاري سلمه، ومرؤوسيه وجنوده، بل حتى مع من لم يتسم بحسن النية وحسن القصد من أتباعه، مع أنّه كان متمكناً منهم، قادراً على إنزال الأذى بهم.

---

(1) انظر: في السبيل إلى القيادة.
(2) المصدر نفسه، ص: 142.
(3) المصدر نفسه، ص: 142.

وصفه أبو هالة بقوله: «وسع الناس بسطه وخلقه»[1]، وكان: «أوسع الناس صدراً»[2].

يأتيه جندي بسيط بعد انتهاء إحدى المعارك فيقول له بلهجة آمرة قاسية (اعدل!) فلا يزيد على قوله كما ذكرت كتب السيرة: «**ويلك ومن يعدل إن لم أعدل، لقد خبتَ وخسرتَ، إذا لم أعدل فمن يعدل!**»[3] وكأنه يعتذر لصديق له! ولمزيد من الاطلاع على حلمه انظر شهادات القريبين منه في موضوع بعده الخلقي.

ولو استطردنا في ذكر الأمثلة لطال بنا المقام، وحسبنا بيان القرآن فيه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159] فعلامة حلمه الكامل أن لم يحدث تمرد عليه من أحد أمراء حربه، ولم ينقم عليه أحد مساعديه الأقربين، ولم يسخط عليه أحد وزرائه لا في حياته ولا بعد مماته، ولم يختلف المسلمون في كمال خلقه وعدم انتصاره لنفسه حتى أمام أقل الرتب من أفراد جنده، مع كثرة المواضيع التي اختلفوا فيها بعده، بلى، لقد كان ﷺ: «أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً، ما لم ينزل عليه القرآن، أو يعظ، أو يخطب»[4]، كما كان إذا لم يعجبه عمل فردي أو فئوي يصعد على منبر الخطابة ليقول مثل هذه العبارة: «**ما بال أقوام يصنعون كذا**»[5]، ولا يلجأ إلى التعنيف وما يسمى بالعقوبات الانضباطية، ومواقفه الكريمة من المنافقين حتى بعد انكشاف أمرهم، وظهور مخططات مكرهم، وأثرهم السلبي في المقاتلين في الأجواء الجهادية، ومحاولاتهم الآثمة لتخريب البناء

(1) نور اليقين، ص: 289.
(2) المصدر نفسه، ص: 289.
(3) حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، ج2، ص: 601.
(4) نور اليقين، ص: 290.
(5) المصدر نفسه، ص: 288.

الإيماني للمؤمنين وتمزيق أواصرهم. . . تلك المواقف الكريمة له ﷺ من هذا الطابور الخطر تتميز صفحاً بل وحتى استغفاراً لزعيمهم بعد موته إضافة إلى إحسانه إليه ما دام بين أظهر المؤمنين، ومن المحسوبين على معسكرهم!.

4 - شورية النبي ﷺ والاستبداد من الآخر:

في قراءة لسير القادة العسكريين، يتبين لنا أن الاستبداد كان السمة التي بها يتميزون، يقول خروشوف عن ستالين أنه:

«كان يتصرف بالنيابة عنهم. . دون أن يسألهم رأيهم في مواضيع اختصاصهم»[1] وأنه كان: «ينتمي إلى تلك الطائفة من المستبدين الثوريين التي تضم كروميل ونابليون وبسمارك»[2]، وليس هتلر إلا واحداً من تلك الطائفة ذلك: «أن أوجه الشبه بين الرجلين عديدة ومذهلة، فكل منهما قمع المعارضة المحلية ضده دونما شفقة، وأخضع شعبه لتسلطه الدائم»[3] إذاً فمن بقي من رجال الحرب يمكن أن نظن اتباعه لمبدأ الشورى في الحرب؟ أهو جنكيزخان الأهوج؟ أم هانيبال السفاح؟ أم غير هذا وذاك؟. . فإذا ما قرأنا الصفحة العسكرية لمحمد ﷺ لما رأينا فيها إلا حجج النبوة تطالعنا في كل حدث وكل واقعة عسكرية، وكل خلاف نشب بينه وبين أركان حربه ووزراء سلمه. . .

في «بدر» غيَّر الموقع القتالي الذي حدده للقاء العدو، وأصدر أمره إلى القطعات العسكرية لمغادرة موقعها القديم والعسكرة في الموقع الجديد الذي اقترحه جندي بسيط هو «الحباب بن المنذر»!. . وفي «أحد» قدَّم الشورى

(1) ستالين، سيرة ذاتية، إسحٰق دويتشر، ترجمة فواز الطرابلسي، دار الطليعة، بيروت، ص: 630.

(2) المصدر نفسه، ص: 583.

(3) المصدر نفسه، ص: 583.

على نظرته العسكرية الصائبة، ورؤيته الصافية التي تطّلع في لحظات من النوم، أو اليقظة، على سرّ من الغيب بإذن الله حرصاً على تحقيق مبدأ الشورى، وليكن بعد ذلك ما يكون من الأمور المادية، فقد روي عنه ﷺ حين علم بأمر الجيش الثأري الذي خرج من مكة لإبادة المسلمين: «**رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء به من الفتح وإجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله خير، فإذا هم المؤمنون يوم أحد**»[1]. أما الجنود فقد ألحُّوا بالخروج من المدينة للقاء العدو مباشرة، وفي الهواء، وبالسلاح الأبيض كما يقولون.. وينزل على رأي أكثرهم مكرهاً، حتى ليشعر جنده بذلك الاستكراه الذي مارسوه مع نبيهم فيعتذرون قائلين: «يارسول الله استكر هناك، ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك» فقال رسول الله ﷺ: «**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**»[2] أرأيتم كيف تستأمر العساكر؟ ويخالف الرسول ﷺ نظرته في أمور الحرب، وتجارب أهل النظر الحربي، ويقاتل مستكرهاً؟ لقد رأينا من يستكرهون الجند على القتال، ولم نر جنداً يرون طاعة الرسول ﷺ فرضاً عليهم ولا يخالفونه في صغير أو كبير من أمره، حتى ما يتعلق بأخص وأكثر المسائل حيوية وتأثيراً في وجودهم ومستقبلهم ثم لا يرى لنفسه أن يخالف رأي مجموعة من أولئك الجند دفعتهم عوامل إيمانية إلى التحمس العاطفي والتوق إلى الشهادة، وجعلتهم يحاولون تحديد ريادة و«إستراتيجية» المعركة وفقاً لرغبتهم القتالية المخلصة.

ولكن النبوة لا تعرف الاستبداد وتكرهه، وتستهدي بوحي الله سبحانه

(1) البخاري برقم 4081، المغازي، باب من قتل من المسلمين يوم أحد الحديث.. وتهذيب السيرة، ص: 174.

(2) تهذيب السيرة، ص: 174.

الذي نزّل هذا الأمر في معاملة أتباعه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران: 159]، ولم يحدثنا التاريخ أنه ﷺ استبد برأيه في مسألة حربية إذا ما سمع آراء فردية مستوية أو آراء جماعية مخلصة إلا إذا كان لديه أمر من الوحي.

5 - رحمة النبي ﷺ وإخلاصه وتمجيد النفس لدى الآخر:

يقول نهرو: «إن الإيثار المطلق بقدر ما يتعلق الأمر بالعالم الخارجي أمر غير ممكن دائماً، ولكي يقود القائد أتباعه قيادة ناجحة قد يضطر إلى أن يمجد نفسه في أعينهم»[1]، ويقول خروشوف عن ستالين: «استخدم ستالين كل الوسائل المتوفرة لاستجلاب التمجيد لشخصه»[2]، و«ماكان علينا إلا أن ننصت إلى حديثه ونكيل له الإطراء والمديح»[3] ويقول أهرنبرغ عنه: «كنا قد نسينا منذ فترة طويلة أن ستالين كائن فان، فقد تحول في أذهاننا إلى إلٰه جبار غامض»[4]، وكذلك مارس التمجيد لذاته أكثر رجال الحرب في التأريخ القديم والحديث، وأحاط شخصيته بهالة من العظمة الزائفة، وحجب نفسه عن الناس حتى لا يكاد يرى إلا قليلاً، وإذا مارآه أحد وقابله رهبه.

فهل فعل ذلك يا ترى الرسول ﷺ؟ التاريخ يقول: لا، بل إنه كان لا يزال يبيّن للناس على الملأ وأمام الأعداء والأصدقاء أنه ليس إلا بشراً كسائر البشر لا يتميز عنهم بشيء سوى اختيار الله سبحانه له لأداء دور في حياة الناس وفقاً للإيمان، بلى، إنه لم يكتف بالصمت وعدم التحدث عن مواهبه البارعة، وسياسته الحكيمة، وتعاطفه مع ألم الناس وأملهم، وتجرده المطلق

(1) السبيل إلى القيادة، ص: 110.
(2) ستالين، ص: 629.
(3) نفس المصدر، ص: 635.
(4) نفس المصدر، ص: 635.

من المنافع، وصلابة خلقه وعظمته، لم يكتف بهذا الصمت الذي يغيب فيه الرغب عن البروز، في مجتمع كان البيان يمازج نفسه وعصبه، والإعلام يداخل تعبيراته عن أحساسيسه ومفاخره، إنما لجأ علاوة على ذلك إلى بيان أمره كما هو بعيداً عن الظن والغلو الذي يحاط به أصحاب الكفاءات من الذين يستوعبون تطلع القوم إلى حياة العز والحرية والأمن والسلام والعدل... وحيث كان محمد ﷺ نبياً يتكلم بوحي الله، فقد كان من الممكن أن تكبر صورته وتتعاظم أكثر في الخيال الشعبي، فلو كان عليه السلام - حاشاه - رجلاً عادياً لا نبياً، لارتاح وانتشى بالصورة الزخرفية الهائلة التي انطبعت لذاته في خيال أتباعه ومرؤوسيه، وأعدائه، والعمل على إمداد تلك الصورة بمزيد من الأخبار الباهرة، ليضمن طاعة متبوعيه له، وتحركهم السريع وفق إشاراته، وتخصيصه بكل ما يملكون من متع ولذات، وقد يتوصل به إلى تمزيق شمل عدوه بما يقع في نفسه من الرعب من تميزه المهيمن، المؤثر، بدون أسباب ومقدمات في حياة الناس ومصائرهم، كما يشاع!.

اقرأ هذه الآيات:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: 9].

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80].

إنّه لا ينقذ واحداً من المنافقين من مصيره السيء؛ إذ لا يشاء الله سبحانه ذلك!.

إنّ محمداً ﷺ من خلال القرآن، ذلك الكتاب الذي هو منهاج حياة المؤمن، وكمرآة لحياة الرسول ﷺ، ووسيلة تعرف المعارضة والموالاة على ذلك، لم يكن إلا بشراً يأكل ويشرب كما يأكل الناس ويشربون، بل (مما)

يأكلون ويشربون لا من غيره من الطعام والشراب الخاص به! وعلى مائدة واحدة في المناسبات العامة والخاصة، في بيته وبيوت مضيّفيه، وهو يتزوج مثل سائر الناس، بل تذاع على الملأ دون سائر الناس مشاكله البيتية وسره الزوجي أحياناً، وهو يشعر بسائر الأحاسيس والانفعالات البشرية، ينام ويتعب، ويرضى ويغضب، ويحزن ويسر، ويأسى ويتأذى، ويستحي ويبكي، ويخشى ما يشاع عنه من الأمور التي ينظر إليها المجتمع نظرة تأثيم رغم خلقه العظيم.. ولا تظنن أنّ تبيان القرآن الدائم لذلك كان يغضي من قدره وينقص منه في قلوب أصحابه، فهو كان معززاً يطاع له الأمر، فهو لم يزد بذلك التبيين إلا قدراً وتوقيراً، حتى كان أصحابه يجلسون في مجلسه وكأنّ على رؤوسهم الطير من الخشوع والتهيب له، وحتى كانوا ينتظرون مجيء الغرباء إلى المدينة ليسألوه ﷺ عن المواضيع الدينية فيتعلّمون هم من جوابه لهم لعدم إقدامهم على مساءلته كثيراً بدءاً، علماً بأن ذلك التقدير لم يمنعهم من إبداء آرائهم، وإلقاء أسئلتهم المهمة، أو محاورته في المواضيع التي تتعلق بوجودهم، بل حتى عرض آراء مخالفة لاجتهاده، كما حدث في الحديبية.

6 - الرسول ﷺ وتميز الخطاب الديني

والآخر من صنع وسطه وخطابه رهن بعصره

لقد كان الآخر العسكري متأثراً بالتركيب العلمي والمعرفي والفكري السائد في وسطه أو الوارد من وحي تراثه، والذي كونه الاجتهاد الفلسفي والهوى القومي أو العنصري أو العطاء الديني النابت من تربته، فقد كان (هتلر) يتبنى فلسفة (القوة) التي طغت على خطابه ويزعم استعلاءه العبقري.. وقد تبادر إلى فكره أن شعبه بحكم دمه هو الأقوى والأجدر بالحكم والاستيلاء على مقدرات الشعوب، وتوجيه دفة الأمور، ولا زال بعضهم

متأثرين في أعمالهم ومخططاتهم الفوقية بمثل هذه الفكرة، واليهود يرتكزون في خطابهم على طمعهم الموروث في أرض الأنبياء عليهم السلام ومسرى الرسول ﷺ، وعلى زعم (الشعب المختار) الذي نشأ من جذور دينية وتراثية، وتشرشل يقول مثلاً: (إن أفكاري تتركز بصورة رئيسة في أوروبا وفي بعث أمجادها بوصفها القارة الأم لجميع الشعوب والحضارات الحديثة)[1]. وكان يخاطب (الروح البريطانية) من خلال الإذاعة في الحرب الثانية، بينما كانت التعاليم العسكرية الفرنسية تقضي بالهجوم وترديد شعار (تحيا فرنسا!).. والأمثلة أكثر من أن تحصر.

فإذا ما نظرنا إلى الخطاب النبوي في الحرب لم نلحظ فيه أي أثر للوسط والأمة ذات الحدود الجغرافية والمكونات الوراثية، فهو لم يكن يعمل في حروبه إلى إعلاء شأن أمة على أمة أو رخائها على حسابها، أو فرض مذهبها (أيديولوجيتها) على غيرها بقوة السلاح، ولو عرفنا أنّ شعاره الحربي وهتاف جنده كان «لا إله إلا الله» لتحققت لدينا نبوته وصفاء نيته وعدم تأثره بالوسط القبلي أو القومي، بل إنه حين أتى برسالته التوحيدية كان حرباً على أكثر ما اصطلح عليه قومه من عادات رسخت في حياتهم وأوضاعهم منذ مئات السنين، ولذلك بدأ بإصلاح قومه قبل غيرهم... لا كما يفعل الآخر حين يدرس أحوال أمته ويظهر نقاط ضعفها ومكامن اندفاعها ومواقع إثارتها، تمهيداً للقيام بالتعبئة المباشرة للشعور القومي أو الجنسي أو الطبقي أو الديني الحاضر في نفوس أفرادها، ابتداء من الدرجة التي هم فيها في قوة تلك المشاعر، وإلى أمام، مع تعديلات طفيفة على حياتهم وفكرهم يقتضيه إعلاء شأن الأمة أو الطبقة ثم ضربها بغيرها لإدامة حياتها، أو تتريفها، أو إرضاء غرورها، أو إشباع ميلها إلى التعالي والتكاثر.. ولو كان ﷺ حالماً بالأمجاد

(1) مذكرات تشرشل، ج2، ص: 728.

مثل الآخر لكان بوسعه أن يختصر سنين طويلة من جهده الذي صرفه في تعليم المؤمنين وتزكيتهم وفق منهاج عبادي، أخلاقي، متشعب، ويوجه طاقة أتباعه في أداء مقتضيات ذلك المنهاج علماً وعملاً، لكنه لم يكن في غنى عن ذلك كشأن الرسل عليهم السلام، وهكذا استهلكت قوى قومه في الإعداد لحربه والاكتواء بنارها، بدلاً من أن يجمع تلك القوى الهائلة ويطلقها هناك في أرض الله الواسعة ليكسب بها المغانم ويتجنب كثيراً من المغارم، ولكنها النبوة التي تقدم التزكية على الدفع، والإيمان على السياسة، بل تجعل من القتال والسياسة وسائل وقتية لإزالة الحواجز التي تحول دون تمكن الإيمان في قلوب الناس وأوضاعهم، فيبقى الإيمان ومقتضاه حتى بعد غياب آثار المدافعة ومقتضيات السياسة.

7 - الالتزام بالمعاهدات:

ترى كم معاهدة وقعت بين أطراف متحاربة في العصر القديم والحديث، فلم تفعّل إلا قليلاً، وظاهرياً، وإلى أمد محدود، بينما نرى نصوص المعاهدات التي كان يوقعها الرسول ﷺ مع من كان يحاربه تكتسب سمة النصوص التي لا يحل له أن ينقضها، أو يفرط في تفعيل بنودها، ومهما كانت الظروف، وسواء علم الطرف الثاني بذلك أم لم يعلم، . . . كما أنه ﷺ لم يكن ليعقد مباحثات سرية مع من ينحاز إليه من أفراد ذلك الطرف الذي تعاقد معه، أو يكلفه بأعمال خاصة يؤديها وفق ترتيبات معينة لا يحيط بها علم عدوه، مع أنّ ذلك هو شأن كل الذين يقربون إليهم سراً كل من ينحاز إليهم من جهة الأعداء ليكلفوه بمهمات حربية أو استخبارية ما دامت المعاهدات قريبة النقض، والحرب الباردة حامية الوطيس، والحرب الحارة المقبلة ستهدد أحد الأطراف بالفناء الكامل، أو الأسر الشامل، أو الخضوع الدائم.

فالرسول ﷺ لم ينقض معاهدة، ولم يخرم من إحداها حرفاً، ولم يخالفها روحاً أو نصاً كما يقال، مع أنه كان في مركز القوة الذي يؤهله ويجعله قادراً على تحمل نتائج نقضه ومخالفته لما عاهد الناس عليه، فقد كان أحد بنود معاهدة له مع قريش:

«من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليّه رده عليهم، ومن أتى قريشاً ممن مع رسول الله ﷺ لم يردوه عليهم»[1].

وفي لحظة كتابة بنود المعاهدة وصل شاب مسلم من مكة وهو يرسف في القيود، ليلجأ إلى حمى الرسول ﷺ وينجو من التعذيب، ولكن الرسول ﷺ رده لمعارضة ممثل قريش في ذلك الصلح، مع أنه ﷺ كان في مركز القوة والتفوق، ترى كيف استطاع الرسول مغالبة عواطفه وهو الرؤوف الرحيم بأتباعه؟ إنها النبوة التي تفرض عليه الالتزام الكامل ببنود معاهداته، يتجلى ذلك الالتزام في قوله لذلك اللاجىء المؤمن: «**يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإنّ الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم**»[2].

أين هذا الموقف من موقف رجال دول في العالم يأوون المنشقين من معسكرات أعدائها، أو يعيدونهم إلى تلك المعسكرات والبلدان لأداء مهمات؟ مع أن المعاهدات بين بلدانهم ودولهم قائمة، دائمة، توثق وتغلّظ وتنوع يوماً بعد يوم ولكن على الورق!، وكما يقول د. «مراد هوفمان» فإنّ العلماء المسلمين علموا أنّ: «العقود والمعاهدات يجب أن تحترم ويوفى بها

(1) صحيح السيرة النبوية، ص: 416 - 417، إبراهيم العلي، من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم الذي في الصحيح.

(2) الرحيق المختوم للمباركفوري، ص: 329.

بغض النظر عن ديانة الطرف الآخر»[1]. . مع فرق يذكره في نفس الصفحة هو أنّهم يأخذون ذلك من الوحي كما يأخذ الآخر من القانون الدولي.

8 - الآثار الدائمة والطيبة للنبوة:

لم يُنشئ العسكريون آثاراً طيبة عميقة في حياة وتفكير وتصورات وأنفس الشعوب التي سيطروا عليها وحكموها، فلم يضمنوا بذلك بقاء قواعدهم وجنودهم على أراضيهم لانعدام الترابط النفسي بين الغالبين والمغلوبين، فقد كان حكمهم لتلك الشعوب حكماً عسكرياً لا يستمد بقاءه إلا من رهبة القوة الباطشة والتسلط الجائر، فإذا ما زالت تلك القوة أو وهنت، انتقض الناس وثارت الشعوب وأزيل المسيطرون، فما يفرض على الناس بالقوة يرفض إن عاجلاً أو آجلاً بالقوة، ذلك كان موقف الشعوب من جيوش نابليون، وهتلر، والحلفاء، ومن قبلهم جنكيزخان ومن سواهم، ذهبت آثارهم ولم تبق إلا صحائف التاريخ تذكر الوحشية والبطش، فقد كان أولئك إما مفتقرين إلى الإيمان والحكمة والرحمة، أو لم يكونوا ذوي عقائد أصلاً، أو كانت عقائدهم غير مستوعبة، أو غير خالية من إرادة تحقيق المنافع الأممية، وإشباع شهوة نزف الدماء، أو امتصاص خيرات الشعوب أو إذلال الأعزة من أهلها. . فجنكيزخان مثلاً لم يكن سوى سفاك دماء وهادم حضارات، لا يختلج قلبه بخلجة رحمة، بينما لم يكن نابليون مثلاً صاحب عقيدة معينة: «فقد انتحل الكثلكة في حرب الفنديين، وأسلم في مصر، وجهر بعصمة البابا في حرب إيطاليا، وقال مع ذلك، ولو كنت أحكم شعباً يهودياً لأعدت هيكل سليمان»[2]، وهو الذي أصدر منشوراً بعد أن ألقت الحملة الفرنسية مراسيها

(1) الرحلة إلى الإسلام، د. مراد هوفمان، ص: 84.
(2) إعجاز القرآن للرافعي، ص: 184.

في مصر يقول فيه: «إن الفرنساوية مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم نزلوا في رومية وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائماً يحث النصارى على محاربة الإسلام! ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين.. وشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»[1]. أما هتلر مثلاً فلم تكن لديه سوى عقيدة إعلاء جنسه الذي يستحق وحده في نظره الاستئثار والتحكم.. وحين غاب عن مسرح الوجود كان أثره قد تلاشى نهائياً حتى لدى شعبه الذي أورده موارد الهلاك. وقد يقول أحدهم: أن الحملة الفرنسية على مصر طبعت أهل مصر بطابع الحضارة التي نشأ فيها أفراد الحملة في بلادهم، ولكن وهل يحلّ استبعاد شعب وإرهابه وإذلاله وسرقة خيراته مقابل شيء من التحضر المهين أو (الإفساد) في كلمة القرآن؟ ثم ألا يمكن للشعوب أن تتحضر حتى في الجانب المادي إلا بعد إعلان الحرب الظالمة عليها؟ ألا يملك أصحاب تلك الحضارة وسيلة إنسانية لإقناع الشعوب بالتحضر التقني الذي يبخل به الآخر؟.

وقد يرّد آخر علينا بقوله: إن بعض الحملات العسكرية قد أحدثت نوعاً من التأثير في شعوب الشرق بما لدى الحلفاء الذين احتلوا تلك الدول وتقاسموها بينهم بعد الحرب الثانية، والجزائر خير شاهد على ذلك التأثير، وقد يكون ذلك وجه واحد من الحق، وذلك أن من دأب العسكريين أن يتذرعوا في سبيل تثبيت أقدامهم في الديار المفتوحة بمحاربة المؤسسات العلمية واللغوية والمعرفية ومصادر التوجيه الفكري فيها، وإشاعة الانحلال في صفوف شبابها باسم الحرية والديمقراطية لصرفهم عن قضايا أمتهم ومنفعة الآخر وإزالة آثار عدوانه، وتدمير قوى المعارضة بقتلها أو كبت نشاطها وإذلالها ليأمن جانبها، ويوغل في تحقيق ما يريد، وكذلك قال تعالى في

(1) مجلة حضارة الإسلام، العدد 3، سنة 1976.

وصف بعضهم: ﴿إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34].

مود في العراق، وغورو في الشام، وكرومر في مصر الذي أمسك بالمصحف على باب الأزهر قائلاً بأن حكمه: «لا يمكن أن يستقر في مصر ما دام فيها الأزهر وهذا الكتاب فلا بد من القضاء عليهما»[1]. لكن العبرة بالمعقبات؛ إذ لم يكد الآخر يحمل عصاه مرغماً، عائداً إلى دياره، حتى بدأ أبناء تلك الشعوب الذين استعصموا على السير مع التيار الدافق الذي أطلقه الآخر في أرضهم وفضائهم، وعلمهم، وعاداتهم، واتجاهاتهم، ولغاتهم، يتنفسون الصعداء ويتنصّلون من مفروضاته وآثاره، ويقبلون على قصص ماضيهم وتاريخهم، ولسانهم، ولغتهم، ومقوماتهم الخلقية، معتزين بها ومزيلين عنها غبار القرون المظلمة وتحريفات الأعداء المعتمة، ليطيب لهم الزاد ويصفى، ويقيموا حياتهم على ما هو خير وأبقى... وذلك من أقوى الحجج على عدم قدرة القهر على التأثير في حياة العقل والروح والنفس والاجتماع لأبناء شعوبنا.

أما إذا ما التفتنا إلى آثار النبوة في حياة الأمة التي قاومت الرسالة ثم آمنت بحقها، والأمم التي آمنت بها بعد أن كسرت الحملات العسكرية السدود التي أقيمت أمام كل فكر جديد أو دين عتيد خوفاً من أن ينكشفوا أمام شعوبهم وأممهم فتراهم على صورهم، وتزول عن تصورهم هيمنتهم المرهبة والأسطورية أحياناً أو المادية القهرية، وكذلك الأمم التي بقيت محافظة على دينها لكنها تخالطت بشكل أو بآخر مع الإسلام الذي دعا إليه النبي ﷺ أو الراشدون من الخلفاء. لوجدناها شاهدة صادعة بالحق في نبوة محمد ﷺ، وما تميزت به النبوة من ميزات فريدة في إعداد الجند، وتجريد

(1) الفلسفة الحديثة في الميزان، محمد بن فتح الله بدران، ص: 35.

دوافع القتال من حظ النفس بدرجة متميزة عن الآخر، وعدم التدخل المباشر في خصوصية الشعوب المسلمة ولغاتها ما لم تضاد الحق، وضمان حرية دين الشعوب. ويمكن تعريف الحروب الراشدية بأنها امتداد طيب حروب النبوة لأن تفصيلها ووجهتها كانت متأسية بوجهة الرسول ﷺ.

الخصائص المنهاجية لعمل الرسول ﷺ في الحرب والسلم

1 - إعداد الرجال:

في اختيار الجند والأتباع كان الإيمان بالله سبحانه وطاعة أمره، والطاعة الكاملة للرسول ﷺ لكونه يبلغ الدين، هو المنهاج الذي اتبع لتكوينهم، فقد زكّى الإنسان الذي كان ينضم إلى صفوف جماعته، واستثار دوافعه الخيّرة وأخلاقه البرة، مع لمس لكفاءاته الإدارية أو الحربية أو السياسية، هكذا فظل ﷺ طيلة ثلاثة عشر عاماً، يختار أتباعه من بين الذين يحيون للحق، ويسعون إلى نصره، ولا ينظرون إلى الأمور نظرة نفعيّة أو ذوقية وحسب، ولا يكبّلون عقلهم بالحساب السياسي والدوافع القبلية، ولذلك لم يتبعه العاملون للزعامة، أو الراغبون في الكسب السريع، أو المترفعون على الناس لأمور دنيوية، ثم مكث ﷺ كل تلك المدة الطويلة، يعلّم تلك الفئة الخلق الكريم، ويقوي تقواها لله سبحانه بالعبادة والذكر، ويطمعها في جنات تجري من تحتها الأنهار، ويجعل عناصرها المتباينة في بوتقة واحدة، دون أن يكلفها بتمارين عسكرية، أو يدربها تدريبات سرية، أو يصدمها بغيرها من قوى المجتمع الشركية، وذلك ما لا يفعله الآخر الذي يتقرب إلى مواقع القوة في المجتمع، ويستقطب أصحاب الكفاءات العسكرية، والحالمين بالأمجاد القومية وتسنم الزعامات المحلية أو العالمية، ويجمع كل الطاقات الجماهيرية دون تمييز أو تفريق. وسرعان ما يرفع درجتها القتالية ويضرب بها من يحول دون وصوله

إلى القمة من الفئات أو الحاكمين لمجتمعاتهم ليزيلهم عن أماكنهم وليتيسر لهم بعدها تنفيذ مآربهم، أي أن مناهج الآخر تكاد تخلو من السعي لتأصيل الإيمان والتقوى. فلما هاجر ﷺ إلى المدينة كان معه من الجند فئة تجردت لله سبحانه من أعز ما تملك من متاع الدنيا، وحين وقع الصدام الذي لا مفر منه بينها وبين المشركين لسمة الظلم من الذي يتبع الهوى ويعبد آلهة أخرى، كانت الفئة المؤمنة قد كسبت من الزاد الخلقي والنفسي التي تزودت به في مكة ولا تزال تتابع تزودها، ما يجعلها قادرة على الإخلاص لتحقيق ما من أجلها تقاتل وهي تحكيم شريعة الحق في الأرض وإدخال الناس الجنة ما رغبوا في ذلك، دون نظر إلى طمع نفسي أو نفع دنيوي. وكانت السنوات العشر الأخيرة التي قضاها ﷺ في المدينة كافية نوعاً ما في تزكية وتعليم المؤمنين الجدد، وتوجيه الوفود المسلمة إلى دينها، وإرسال البعوث والداعين إلى الجماعات المؤمنة هنا وهناك في أرجاء الجزيرة لتبصيرها بالحق، بينما تولت كتبه ورسائله إلى ملوك وأمراء العالم بيان ما يريد لهم ولشعوبهم من خير الدنيا والآخرة. فلما انساحت قوافل المؤمنين في العالم الوسيع كانت متمتعة بدرجة متميزة من قوة الإيمان، وإخلاص القصد، واعتدال الخلق، والتقوى، وحب للحق تعلموه من الوحي وحكمة النبي ﷺ . وكانت تلك الخصائص تؤثر شعورياً أو لا شعورياً فيمن يحتك بهم المسلمون أثناء الفتح، مما جعلهم يرضون بالحق الذي حمل هؤلاء القوم على إرادة الموت و تقديم ما يملكون في سبيل الله سبحانه، ويعلمون أنهم قوم يريدون البناء والتعمير لا الهدم والتدمير، يحاسبون أنفسهم على معاملتهم لأنفسهم وتعاملهم مع غيرهم سواء بسواء، يجعلون كل من أسلم أخاً لهم، له ما لهم وعليه ما عليهم، يتحاكمون جميعاً إلى شريعة واحدة يأمن في ظلها كل فرد على دينه ونفسه وماله وعرضه، يؤدون جميعاً عبادة واحدة تؤدى جماعياً وتنشىء الأخوة

والحب والتعاون بين كل من أسلموا طوعاً، تآلفوا مع أولئك الجند الممتازين، وأخرجوا مواهبهم لتؤدي دورها في التمكين لذلك الدين الذي اطمأنت إليه قلوبهم وسكنت نفوسهم.

وهذا الإعداد الخاص للجند هو من ميزات النبوة والمهتدين بهديها؛ إذ لم يقم أحدٌ به سابقاً أو لاحقاً، إنما واجهوا الناس بجنود خام، ولم يهتموا كما أسلفنا إلا بتعبئتها ورفع شعور الكراهة للآخر والنقمة عليه، فكانت الخطايا والإرهاب الواسع وقتل الأبرياء، ولم تطمئن الشعوب إلى حكمهم، ولا أمنت مكرهم، ولا شعرت بالعدل في حكمهم، فعاشت تحت قهرهم على مضض، أو ثارت على بطشهم في عنف وألم.

2 - تخليص دافع القتال من حظ النفس وربطه بالإيمان بالله سبحانه:

ماذا كان يريد النبي ﷺ من الناس، وماذا كانت تريد جنوده منهم؟ ألم يكن إيمانها بأنّه «لا إلٰه الا الله»، وهل يضرّ الإيمان بهذا الحق أحداً من الطيبين الراغبين في الخير الكارهين لتحكم البشر وطغيان الشر؟ الجواب حتماً: لا: ذلك أنه لا يتضرر من ظهور هذا الشعار إلا من اتخذ نفسه إلٰهاً، وجعل من رأيه حكماً فصلاً ورسولاً، أو ألّه غيره ورضي أن يكون له عبداً مطيعاً.

ثم هل يمكن أن يحيا الإنسان حياة كريمة في حمى تلك الآلهة الزائفة أو كهنتها؟ الجواب: لا، لسبب بسيط هو عدم وجود حدود لأهواء وميول وشهوات وثارات ونزاعات تلك الآلهة الزائفة مع من ينافسها ويسابقها ويتحرش بها من مثيلاتها، وسيكون جمهور الناس وقوداً لحروبها، وألعوبة بأيديها، ومتعة غير مشروعة لشهواتها، ما دام لا يكون بينها وبين أولئك الناس منهاج من تنزيل حكيم حميد لا يميل مع جمهور موتور، ولا مع حاكم جائر. ويبين د. «مراد هوفمان» ذلك بأنه كان ولا بدّ من رسول آخر يدعو

الناس إلى عبادة: «الله الواحد الفرد الصمد الذي لا شريك له والذي هو رب الخلق جميعهم»[1].

لقد علم سكان البلاد المحررة وتيقنوا أنّ القادمين إلى بلادهم من المؤمنين داعون إلى سلام وكرامة، لا إلى حرب وتدمير وقتل الناس لشهوة القتل والعنف والكراهية، فدخلوا في دين الإسلام أفواجاً، وذلك كله من أثر النبوة التي لم تبتغ من الغافلين عن ذكر ربهم سوى تجديد ذلك الذكر في قلوبهم وتوجيه حياتهم وفقههم، إذ أن الفطرة سريعة الإياب إلى خالقها إذا ما أحست فيمن يهديها عليه نبرة الصدق والإخلاص، لذا فإن الناس أسلموا وبقوا على إسلامهم بعد وفاة النبي ﷺ، أو وفاة خلفائه الراشدين، وأتباعه المخلصين من بعده، وذلك ما لم يتم للآخر من قادة الحروب لا في العصر القديم ولا في العصر الحديث. ولم تكن حركة الردة سوى عودة للجاهلية والأسطورية والشهوات والبخل بمنع الزكاة والتنبؤ الكاذب؛ لذلك فشلت، ولم يبق لها أثر في العصر القادم عليها.

3 - لا للتدخل في خصوصية الشعوب بعد الفتح:

حين حمل المؤمنون الإسلام إلى البلاد المفتوحة في ظل النبوة أو الفتح الراشدي الذي هو فرع ظليل من فروعها لم يلزموا أحداً بارتداء لباس معين، أو التكلم بلسان أو لغة خاصة غير لغته، ولم يقدموا على تبديل السمة الحضارية الصالحة لبلد معين، أو إبادة مصادر علمه، أو السخرية من ذوق أبنائه وعاداته؛ فقد كان منهاج القرآن الذي يدخل القلوب في يسر ورضا هو وحده الذي يستجيب له الجميع عن رضى وطواعية، وحين رضيت الشعوب المسلمة بذلك وتجاوبت معه أخذت هي بدافع من إيمانها تراجع تراثها فتبين نقاط الضعف فيها، أو تترجم محاسنها وروائعها، ولما كان اللسان العربي

(1) الرحلة إلى الإسلام، د. مراد هوفمان، ص: 73.

هو لسان القرآن الذي استولى على أحاسيسهم، وأرضى نفوسهم، وتوافق مع تطلعاتهم، مع كونه لسان الدولة، فقد طفقوا يكتبون به فكرهم وثمار قرائحهم وفقههم وتفسيرهم لدينهم، أما خصوصيات الحياة والأذواق للشعوب فقد بقيت كما هي تبين عن نفسها، بل قد تؤثر أمم أسلمت في غيرها من الشعوب المسلمة التي احتكت بها أو كانت هي السبب في إسلامها، أو تؤثر وتظهر معالمها حتى في تفسيراتها للدين حتى أخرجته في بعض الأحايين عن أصالته أو لبّست عليه خصوصيتها، أو دمجت فيها بعض عاداتها.

يقول د. «مراد هوفمان»: «إنّ العلامة الفارقة بين التشدد النصراني والتسامح الإسلامي تعتمد على الأمر القرآني «الصارم» أن يتسامح المرء مع مؤمني أهل الكتاب»[1]، ويبين أنه إن لم يكن الإسلام كذلك لم نكن نرى كنائس في عالمنا المسلم.

4 - ضمان حرية دين الآخر كتابياً:

إضافة إلى خلو حروب النبي ﷺ من المنافع النفسية والاقتصادية سوى ما كان من تبادل أخذ الغنائم الذي كان عرفاً عالمياً في عصر لم تكن هناك ميزانية للحرب ولم تكن للرسول ﷺ والأمراء والجنود رواتب، فقد خلت كذلك من التعصب الضيق، يتبين لنا ذلك من كونه ﷺ لم يجبر فرداً أو شعباً ممن له دين أو كتاب منزل مهما حُرِّف كتابه، وضاع الكثير من معالمه وسماته، على ترك دينه والتحول إلى الإسلام، ولم يطلب من الباقي على دينه سوى «ضريبة» مالية مناسبة لمستواه المعاشي، مساهمة منه في إقامة الدولة ومنهاجها الذي لا بد من تنظيم موارده لضمان استقرار الكيان المالي للدولة. ومقابل حمايته إذ لم تكن الدولة تكلفه بالدفاع عن نفسه وما يملكه ضد العدوان الخارجي. وكانت هذه

(1) انظر تفصيل ذلك في الرحلة إلى الإسلام، ط 2 سنة 2006، ص: 46.

الجزية أقل مما فرض في ظل الحكومات السابقة[1]، وإذا كان حكم الرسول ﷺ ذا سمة دينية فهي سمة لزومية لأتباعها، اختيارية لغيرها، ولذلك يقول الدكتور غوستاف لوبون: «إن المسلمين أدركوا أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا أهل سورية ومصر وإسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تاركين لهم قوانينهم ونظمهم وعاداتهم»[2]، وتقول لورافيشيا فاغليري: «كان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقيات مع الشعوب حتى يتركوا لها حرية المعتقد، وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول في الدين الجديد»[3]. ويبين دوزي أنّ الإسلام حين دخل إسبانيا ترك للإسبان حرية الدين والشريعة التي بها يؤمنون[4].

وهذه السمات الأربع تعليم الجند وتزكيتهم، وتخليص دوافع القتال من المنافع الدنيوية، وعدم التدخل في خصوصيات الشعوب المسلمة، وضمان حرية كل دين منزل، مع ما في القرآن من تأثير نفسي على الآخر وما في الشريعة من مناهج حياة وحكم فيها العلم والعدل والصدق، كانت عوامل تأثير على الشعوب المسلمة وأهل الكتاب الذين خالطوا المؤمنين في الحرب والسلم، بل حتى الغزاة الذين أتوا من ديارهم البعيدة لإبادة الإسلام انقلبوا مدافعين عنه ومؤمنين به، وللسبب ذاته تشابكت بين سائر الفئات التي عاشت في الأمة صلات المصاهرة، والتآلف النفسي، والتداخل الحضاري، والتبادل المعرفي، ولا تزال هذه الصلات قائمة بشكل أو آخر هنا وهناك إن لم تعصف بها دوافع تعصبية أو انحرافات تشريعية، أو تمزقها أيد خارجية، أو

(1) تاريخ العرب، فيليب حتي، ص: 194.
(2) حضارة العرب، كارل بروكلمان، ترجمة عادل زعيتر، ص: 146.
(3) دفاع عن الإسلام، لورافيشا فاغليري، ص: 35.
(4) حضارة العرب، ص: 628.

تنل منها دعوات أهوائية، أو تفسدها مظالم اجتماعية. . . هذا هو تأثير النبوة في حين زالت آثار كثير من الفاتحين سوى خرائب عفى عليها الزمن، وإنه لحجة على عملها بالوحي، وتحررها من المنافع والأهواء، ولذلك يقول د. «غوستاف لوبون»:

«انتحلت مصر ما جاء به (العرب)، وحافظت عليه، ولم يستطع الفاتحون الذين سبقوهم إليها من الفرس والرومان أن يغلبوا الحضارة الفرعونية القديمة وأن يحملوها على ما أتوها»[1]، وما ينطبق على مصر ينطبق على غيرها من بلاد المسلمين، أما سر ذلك فهو الدين الذي يدخل القلوب بإيمانه وتقواه.

العمل لرد العدوان

كثر الحديث عن الإرهاب وآثاره والخوف ومضاره من قبل البعض دون أن تُبيّن هذه الأمور تبياناً جامعاً مانعاً، أو يذكر تاريخها ووقائعها في العالم غير مجتزأة، بزعم بعضهم أنّ «الحق نسبيّ»، وأنّ المنافع أو العلاقات الاقتصاديّة أو السياسيّة أو التقنيّة هي التي تشكّل «المرجعية» الفقهيّة والفكريّة وعلى أرض الواقع نجد أموراً كثيرة تثير الخوف، وتفقد التمييز لدى كثير من الناس، وقد يُحمّل الدين أحياناً ما لا يحتمل، أو تلصق به أوصاف منفرة كسمة ثابتة.

إنّ القرآن يمنّ على الناس بإطعامهم وتأمين حياتهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾ [قريش: 3-4] وإذا اهتدى المسلمون بالقرآن كانت حياتهم آمنة مطمئنة، يسودها الخير، ويعمّها الحق، ويحكمها العدل، فتصريفات الأمن ومنه الإيمان، ومقاربه السلم في

(1) حضارة العرب، ص: 628.

القرآن والحديث أكثر بكثير من كلمات الشقاق والنزاع ومنطق العدوان، أمّا الشرّ والعنف والبغي فيُنفر منها.

الإرهاب والعقاب.. نظرة إلى الماضي البعيد والقريب

في الماضي الديني والقصصي للإنسان نعلم أنّه كانت هناك مواجهات بين الخير والشر، ممثّلةً أولاً في مواجهة ابني آدم، وكان الدين المنزّل مع الخير ضد الشر، ومع السلم ضد الاقتتال؛ فحين أرهب أحدهما الآخر، وعنّفه، وخوّفه بالقتل، كان يمثّل الشر وإرادة الموت والإفناء طمعاً، وكان المتّقي قد تأثّم من المبادرة للقتل، وهو مثّل في زمنه إرادة الحياة. ومع أنّ القرآن لم يبيّن لنا الأمر المتنازع عليه، إلا أنّ البغي كان ظاهراً من قبل الأول؛ إذ كان يتكلم بمنطق القوة وحدها؛ فلم يرض بحكم الله سبحانه في عدم تقبّل عمله «قربانه»، لبغيه، وهنا لا نجد أثراً للوالد، فهل كان قد توفي؟ أم كانت القضية نزاعاً حول ميراث؟ أو منافسة على فتاة؟ الخلاصة أنّ قاتل البريء كان من النادمين، وذلك هو عقابٌ معجّل لكلّ من يقترف السيئات.

وكان ما كان إذ كتب على بني إسرائيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32] لأنّ القتل سيستشري، ويكوّن دوائر واسعة أو ما يسمّى بالحرب العائليّة أو القبليّة أو الأهلية أو القوميّة أو المذهبيّة أو الطبقيّة، فقد كان عامل بعض الحروب المحليّة والعالميّة حوادث قتل أفراد، وقد يتورّط الأبرياء أيضاً أو يصابون عدواً وبغياً أو تهاوناً، وقد تضرّرت في الحروب السالفة دولٌ وحكومات وشعوب كثيرة، وهلكت أنفس، ومن أنقذ نفساً بريئة من القتل بإقامة

القصاص، أو عفا عمّن استحقه، أو خلّص بريئاً من ظالم يهمّ بقتله بغياً أو لدينه، أو حكم بالعدل؛ إذ يأمن الناس على أنفسهم، فكأنّما أحيا الناس جميعاً؛ للأمن الذي سيعمّ ويؤدي إلى تكاثر الناس ونموّهم وتوحّدهم، وكان القصاص جسدياً شريعة بني إسرائيل كما ذكر القرآن:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، وأنبياؤهم وحكّامهم أمروا بتنزيل العقاب على الظالمين؛ فقد تزايد الناس في عهدهم، وظهرت المؤسسات، فالنفس كانت تُقتل في شريعتهم بالنفس، وكذلك كان لديهم العقاب الجسدي العضوي، وتُركت الجروح للقصاص المقدّر لها والرادع.

التخويف من آثار التعصب

وكلّ دين منزّل بريء من التعصّب، لكنّ ما حدث من نزاع ديني بين أتباع بعض هؤلاء أدّى إلى شيوع نصوص في الكراهية والعداء تبرأ منها الشريعة المنزلة، فمثل هذه النصوص الثلاثة مثلاً والمذكورة عن التلمود نلمح في بعض ما تدعو إليه أثر الزمن والإنسان والنزاع وعدم تقدير التعددية: «فإذا مات خادم ليهودي أو خادمته وكانا من المسيحيّين فلا يلزم تقديم التعازي بصفة كونه فقد إنساناً، ولكن بصفته فقد حيواناً من الحيوانات المسخرة له»[1]، و: «جميع المسيحيّين حتى أفضلهم يجب قتلهم»[2]. والتفاضل بين

(1) الكنز المرصود في قواعد التلمود، أغسطس روهلنج، ترجمة يوسف نصر الله، ص: 53، مطبعة المعارف، ط1، سنة 1889.

(2) فضح التلمود.. تعاليم الحاخاميّين السريّة، دار النفائس، بيروت، ص: 147، 148، ط1، سنة 1991.

المسيحيّين والوثنيّين لا يمكن تجاهله فكيف يعمّم الحكم عليهم؟: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75] «من يقتل مسيحيّاً أو أجنبيّاً أو وثنيّاً يُكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس في السراي الرابعة»[1]. ويبدو أنّ الشعور الإنساني العصري خشونةً أو ليونةً كان يحدّد ويعرّف ويوصّف الحكم في مواجهتهم، إن أحسنّا الثقة ببقاء الشريعة كلّها كما هي: «أمّا مدن أولئك الأمم التي يعطيها الربّ إلٰهك ميراثاً، فلا تستبق منها نسمة»[2]. وفي الأسفار نجد ما ذكر العهد القديم عن مدينة مقيدة: «وأخذ يشوع مقيدة في ذلك اليوم، وضربها بحدّ السيف، وخرّب ملكها، وكلّ نفسٍ بها، ولم يبقِ شارداً»[3]، وحتى البهائم كانت تهلك، وقد أنكر القرآن على بني إسرائيل تعميم العنف والعدوان مع غيرهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75] والأميّون الشعوب الأخرى.

وفي عهد معظم الحكومات والأباطرة والأكاسرة والملوك قبل الإسلام كان الإرهاب مدمّراً، واستثنى القرآن بعض الملوك الصالحين منه، ومنهم ملوك بني إسرائيل الذين واجهوا المشركين والجبّارين، وكان اختيارهم لذلك.

(1) صناعة الإرهاب.. في البحث عن موطن العنف الحقيقي، نقلاً عن الهالاكا، ص: 121.
(2) د. عبد الغني عماد، دار النفائس ط1 سنة 2003، بيروت.
(3) سفر العدد: 20/ 10، سفر التثنية 5/ 28.

حق الإنسان في الشعور بالأمن الاجتماعي

وقد قصّ القرآن قصصاً عن رجم وإحراق وتعذيب وقتل المخالفين في الدين والمذهب ولو كانوا أنبياء، مما سمّي بالإرهاب الديني والفكري، وكذلك المخالفون السياسيّون، وتاريخ العالم شاهدٌ على ذلك، فقد كان المثل الروماني يقول: «دعهم يكرهونكَ ما داموا يخشونكَ»، وكان كرومر يرى أنّ الدولة الرومانية قد انتهت من قضية أن لا يحكم أهل البلاد التي تغزوها أنفسهم، وقد هجر بعضهم الكتاب المنزل في تعاملهم مع الآخر؛ فكتاب الأمير ظلّ منهاج عمل معظم الأمراء لا الإنجيل كما ذكر ديورانت.. وكانت روما حسب ما يقول جارودي: «تمارس السيطرة على الشعوب بواسطة قوتها التقنية والعسكرية والاقتصادية لكنّها لا تنادي بأيّ مشروع إنساني بل تطبّع بإرادة النفوذ والغنى»[1] فإذا قرأنا أنّ شتى ألوان التعذيب استعملت لتنصير 20000 أسير مسلم من قبل ملكة روميّة ممّا أدى إلى تنصّر 7000 منهم، وقتل 11000 بأمر الملكة تيودورا؛ علمنا أنّ ذلك ليس موافقاً للإنجيل المنزل الذي بشّر بالرسول ﷺ، ودعا إلى العفو عن المسيء، فكيف بمن لا يسيء؟ وكذلك كانت محاكم التفتيش مثالاً لإرهاب العلماء، ولم تكن إقامتها إلا إكراهاً على القبول بقراءة مبتسرة للتوراة المتداولة، وقتل فيها من غير النصارى والمخالفين للتحريف الكنسي 12 مليون، ومنهم من أحرق حيّاً.. ولم تأت حسنات عصر النهضة وتقدمها العلمي إلا بمخالفة أولئك العلماء في بعض نظرياتهم العلميّة لما درجوا عليه من آراء متوارثة كتابيّاً.

---

(1) حفّارو القبور، روجيه غارودي، ترجمة رانيا الهاشم، ص: 110، ط1 سنة 1993، منشورات عويدات بيروت.

وذلك يرينا أنّ الكنيسة لم توفق في مواجهة الإلحاد لمؤاخذتها لهم بالعقاب دون الحوار، وبخلط الزمني بالثابت.. وكانت الثورة الفرنسيّة رغم ما فيها من تجديد وتغيير وإنكارٍ للإرهاب الملكي والكنسي، متميّزة بالعنف والانتقام والشنق كما يروي التاريخ. وكان الأثر الطائفي للآخر فيها بيّناً؛ حيث أطلق على عهد الحكومة للفترة بين (1793 - 1794) عهد الإرهاب لما حدث فيها من اعتقال أكثر من 300000 شخص نفّذ حكم الإعدام رسمياً بـ 17000 منهم، ولقي كثير منهم الموت في السجن دون محاكمة. .أمّا المغول فقد قتلوا بالجملة وبالتعذيب، ورموا الكتب في نهر دجلة، وأرهبوا الناس وسكّان البيوت وقتلوهم، ويروى أنّ تيمورلنك أمر بأن يبنى هرم من 50 ألف من جماجم الناس في برج الروس في الشام.

سقوط الأمم لإشاعة الخوف والترهيب:

ولم تسقط الدولة الرومانيّة وتباد الإمبراطورية اليونانيّة إلا لدورة الحضارات وانطفاء شرارتها الإنسانيّة رغم ما بنت وعمّرت وأظهرت من الفلسفة والفنّ وسبل الإدارة والقانون والتوسّع الحربي؛ لشيوع القهر والعنف، وعبادة الأصنام والتماثيل، وقتل المنكرين للعقائد والأوضاع السياسيّة والاجتماعيّة الجائرة، كسقي سقراط السم.

والجنود الذين كانت شارتهم دينيّة وأرسلوا لإنقاذ قبر السيد المسيح، لم يواجهوا كفرة بل من يؤمن بنبوة المسيح عليه السلام وهم المسلمون الذين يقدّرون فضل هذا النبي عليه السلام، ويعرفون آياته، ويعلمون أنّه مُكر به ليصلب أو يقتل، لكنّ الله سبحانه نجّاه، وحريٌّ بمن كان يتألّم لما أوذي به المسيح أن لا يزيد ألم الناس، فما نبش أحدٌ قبر المسيح، ولا أكره النصارى على الإسلام.. بل سلّم البطريرك النصراني مفاتيح القدس للخليفة عمر طوعاً لما عرف من ربّانيّته، ولا تزال كنيسة المهد قائمة لم ينتهكها المسلمون.. وقد بلغ التعصّب الذي لم يجد آذاناً صاغية

مبلغاً جعل مشهد بعضهم متطرفاً مرهباً حتى لأهل دينهم، كما يذكر بعض المؤرخون النصارى؛ ففي القسطنطينية حيث الروم الأرثوذكس: «نهبوا وأحرقوا وسرقوا؛ ووجد الإمبراطور نفسه مضطراً لأن ينقلهم بسرعة إلى مضايق آسية الوسطى، وهناك تصرّف «جنود الرب» على نحو لا يرضى عنه الرب؛ فارتكبوا أبشع المذابح ضد السكان المسيحيّين»، للخلاف المذهبي[1].

وفي: «مدينة سملين على حدود المجر قتلوا 4 آلاف من المسيحيّين وهم يزعمون أنّهم جاؤوا لنجدتهم، وأحياناً يحرقون المدينة والبيوت على ساكنيها»[2] حسب المؤرخين الغربيّين.. وفي القدس دُبّرت للمسلمين: «مذبحة فظيعة، وأبيحت المدينة للنهب والقتل عدة أيام، وفاض الدم، وظلت الجثث مطروحة في شوارع القدس عدة أيام»[3].. وقدّر مؤرخو الغرب والشرق ومنهم «ميشو» من قتل فيها من المسلمين بـ 70000. وعن القتل العام الذي شمل الناس جميعاً والإرهاب الذي حدث ما يقوله: «ميشو» من: «أنّ الصليبيّين حين فتحوا معرة النعمان قد قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا صبراً مئة ألف إنسان»[4]، وفي القدس:

«كانوا يكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت، ويجعلونهم طعاماً للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض، ويجرّونهم في الساحات، ويقتلونهم من فوق جثث الآدميّين.. ولم ينج اليهود كالعرب من الذبح، فوضع الصليبيون النار في المذبح الذي لجأوا إليه، وأهلكوهم

(1) ماهية الحروب الصليبية، د. قاسم عبده قاسم، ص: 119، عالم المعرفة، رقم 149، سنة 1990، الكويت.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.
(4) المصدر نفسه ص: 129.

كلّهم بالنار. . ولم تكن حربهم على البداوة والتخلّف والتاريخانيّة، فقد كان من عادتهم: «أن يقتلوا أهل كلّ بلد يدخلونه في الشام ويحرقوا كتبه ومتاعه وآثاره، فقد أحرقوا دار المحكمة، وكان فيها نحو مائة ألف مجلد»[1]. . يقول إشبنجلر: «ومن الإسلام انبثقت في الوقت المناسب المدنيّة العربيّة «يقصد الإسلاميّة» التي بلغت ذروة اكتمالها الذهني حين اقتحم البرابرة من الغرب لفترة من الزمن البلاد الإسلاميّة في طريقهم إلى القدس»[2]. ومن وصف المؤرخون الغربيّين للمجازر التي اقترفت في القدس ما قاله المؤرخ الراهبي «روبرت» عنهم: «وكانوا يذبحون الأولاد والشبّان والشيوخ، ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة، فيا للعجب ويا للغرابة أن تذبح تلك الجماعة الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح، من غير أن تقاوم، وكان قومنا يقبضون على كل شيء يجدونه؛ فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، فيا للشره وحب الذهب، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث»[3].

وفي الغرب أسيء للحضارة والتحرر الفكري باسم مؤسسات وشعارات دينيّة، ولم تكن مواجهة التعدّدية مهما كانت مجدّفة إلا بالتخويف. . إذ يتحدث «ول ديورانت» في تلخيصه لكتاب قصة الحضارة عن حملات دينيّة داخل أوروبا، وكيف أنّه عندما وصل العسكر مدينة بيزييه عرضوا على أهلها تسليم المعارضين «المجدّفين» في نظر الكنيسة، لكنّهم تحملوا الحصار لحدّ أكل أطفالهم!: (فما كان من الصليبيّين إلا أن تسلّقوا أسوار المدينة،

(1) هل انتشر الإسلام بالسيف؟. . حوار تاريخي مع نخبة من السياسيين والباحثين في تاريخ الأديان والحضارات، د. عبد الودود شلبي، ص: 105، ط 2005، 1426. سيدني، أستراليا. . دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة.

(2) المصدر نفسه.

(3) تدهور الحضارة الغربية، إزوالد إشبنجلر، ص: 42، ط دار مكتبة الحياة، بيروت.

واستولوا عليها، ومن ثم أبادوا عشرين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال في مذبحة عشوائية مهولة»[1]، وكان سيمون دي مونفور يخيّر أهل البلدات التي كان يغزوها في أوروبا: «بين أداء قسم الولاء للكنيسة الرومانية أو مواجهة الموت كمارقين، الملايين أدّوا اليمين، والمئات آثروا الموت»[2]، وكان هذا القائد: «يعيث دماراً وخراباً في معظم المناطق التابعة لريمون السادس»[3]، ويتحدث ديورانت عن أشدّ القوانين صرامة في عهد فردريك الثاني في (1220-1239)؛ إذ كان من لا يؤمن بتعاليم الكنيسة: «يُحالون على الشعبة المدنيّة أي السلطات المحليّة، فيُحرقون أحياء، وتُصادر ممتلكاتهم، ويُحرم ورثتهم من ميراثهم، ويُعتبر أبناؤهم غير مؤهّلين لإشغال أية وظيفة ذات راتب أو منصب رفيع ما لم يكفّروا عن خطيئة آبائهم»[4] ممّا يرينا أنّ الكنيسة لم توفق في مواجهة الإلحاد لمؤاخذتها لهم بالعقاب دون الحوار، وبخلط الزمني بالثابت.. ويتحدث ديورانت عن نهب روما عام 1527 قائلاً:

«فيما تدافع الغزاة عبر الشوارع كانوا يقتلون بدون تمييز، دخلوا المستشفى ودار الأيتام، اللتين تحملان اسم سانتو سبيرتو، وذبحوا تقريباً كافة المرضى، ونبشوا كنيسة القديس بطرس والفاتيكان من أسفلها وأعلاها.. تم إلقاء الأطفال من النوافذ العالية لإجبار الآباء على إخراج مدخراتهم من أماكنها السرية، وأنزل أحد الكرادلة إلى قبر، وقيل أنه سيدفن حياً إذا لم تأت فديته.

لا أحد يمكن أن يحسب عدد الموتى، وقد استمر النهب ثمانية

(1) هل انتشر الإسلام بالسيف؟ ص: 106.
(2) أبطال من التاريخ.. مختصر قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة سامي الكعكي، سمير كرم، مراجعة عمر الأيوبي، ص: 221، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
(3) المصدر نفسه ص: 222.
(4) المصدر نفسه.

أيام. .»[1]. أمّا الأسرى الذين كانوا في القرآن يُمنّ عليهم أو يُفدون بمبلغ مالي محدود لسد نفقات الدفاع والأضرار الحربية التي ألحقت بهم، فقد كانوا من قبل يُعذبون ويُلقون للأسود، والمدن تُخرّب، والنساء تُسبى، ويُقطع الشجر والنبات.

والإمبراطورية البريطانيّة التي لم تكن تغيب عنها الشمس تفكّكت وأصبحت لا تكاد ترى الشمس، فإن كانت تريد الخير لشعوب العالم أو تحضيرها فإنّ اختلاف الأمم وظهور تيارات عدة في موقفها من الحضارة الغربية ما بين معجب غير متبصّرٍ لهذا التميّز، ومنكرٍ لكلّ تفاصيلها، غير آبهٍ بمقتضيات العصر، وفئة قليلة تؤمن بأولوية الحوار بدون قسر أو إلزام والانتفاع بخير ما في الحضارات، والنظرة غير المقسطة والانتفاعيّة لبعض القادمين، كلّ ذلك أدّى إلى المواجهة مع حكم تلك الإمبرطورية، وكان ردّها عنيفاً. . وقد زالت الفاشيّة والنازيّة للعوامل الاستعلائيّة ومقارباتها قتلاً وتدميراً وأسراً في معسكرات الاعتقال السيّئة الصيت التي ضمّت 200000 شخص. ومنذ الحرب الأولى قتل 100 مليون، وقد كان ردّ الشعوب والحكومات عليها عنيفاً جاوز السقف الخلقي، فخسائر ألمانيا من المدنيّين كان 570 ألف قتيل، و800 ألف جريح، وفي درسدن قُدّر عدد القتلى بـ 135 ألف مدني.

ومع أنّ الله اختار بني إسرائيل على العالمين فإنّ هذا لا يعطيهم براءة ولا يعفيهم من الالتزام الخلقي والديني، بل يمكن استبدالهم لفقدهم الامتياز، بل حتى المسلمين أنذروا بذلك إذا تولّوا ولم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، لكنّ الصهيونيّة الهرتزليّة والتعصّب الديني والعلمانيّة الأمميّة اليهوديّة

(1) أبطال من التاريخ. . مختصر قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة سامي الكعكي، سمير كرم، مراجعة عمر الأيوبي، ص: 221، ط دار الكتاب العربي، بيروت.

وتيارات العنف والتطرّف والإرهاب مع حملة أسطورة الحق التأريخي الذي لا يقابله التزام كانت وراء موجات العنف لتوسيع أرض كانوا يسكنون عليها بسلام مع جيرانهم.. وإذا كان هناك تفريط من والٍ عثماني أو صاحب مسكن باع داره لمن اشتراه بمال سياسي لغرض استيطاني إقصائي للآخر، فإنّه لا يجعل لأحد حقّاً في المسجد الأقصى وما حوله من أرض مباركة بزعم تاريخي هو الاستملاك الديني لأنّ الدين لا يملّك أحداً المساجد الثلاث بل يستخلف عليها من لا يفرّط فيها وفي رسالة الإيمان والتقوى، لذلك قال للمؤمنين المسلمين: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: 38]، ورغم أنّ عبد الحميد لم يفرّط في الأرض حسب الرسالة الموثّقة، فقد كان من الممكن أن يسكن فيها كلّ جدير بالدفاع المستميت عن القدس والمسجد الأقصى وما حولها.. وهكذا اشترى هرتزل وهو غير متدين فلسطين من سياسي بريطاني وهي ليست جزيرة بريطانيّة.. وفي سبيل مزيد من التوسيع دمّرت مدن وقرى منها قرية السموع، التي قتل فيها 200 شخص، ومجزرة دير ياسين التي قتل فيها 360 معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وصبرا وشاتيلا في 18 / 9/ 1982 حيث قتل 3297 رجل وطفل وامرأة في أربعين ساعة من أصل 20000 نسمة، 1097 في مستشفى غزة، و400 في مستشفى عكة، واغتصبت نساء، ووصف مناحيم بيغن الفلسطينيّن بأنّهم «حيوانات تسير على ساقين».. وفي أوائل الثمانينات درّبت عناصر إسرائيليّة فرق الموت في بوليفيا وغواتيمالا التي قتل فيها 250000 في عمليات سرية كان الوسيط فيها كلاوس باربي النازي المعروف المحكوم عليه في فرنسا.

وقد ألّف ستيفن كورتوا كتاباً سماه الكتاب الأسود ذكر فيه أنّ 100 مليون جثة كانت محصّلة الحكم الطبقي في الاتحاد السوفييتي القديم، وفي معركة القرن المنتفخ الصغير سنة 1875 أهلك الهنود الحمر من قبل جورج

كوستر، وألقيت قنابل على هيروشيما وناكازاكي فقتلت أكثر من 200 ألف مدني.. وفي معركة بورودينو لم ينج من جيش نابليون البالغ عددهم 600000 إلا 32000، وفقد الجيش الروسي 42000.. وفي البوسنة والهرسك لا زالت المقابر الجماعيّة تكتشف، وآخرها مقبرة تضم أكثر من 500 شخص.. وجرى فيها القتل الجماعي على الهوية الدينيّة والتعذيب والإكراه على الزنا والتجويع في معسكرات الاعتقال.. وإلى الآن لم ينل مرتكبوها جزاءهم العادل، يقول د. مراد هوفمان: «يظهر أكثر ما يظهر بوضوح نهج الكيل بمكيالين في التقارير الإخباريّة التي تبثّها وسائل الإعلام والتي تتناول الإرهاب؛ فلم يتحدث أحدٌ أبداً عن هتلر الكاثوليكي، أو ستالين المسيحي الأرثوذكسي، كما تتجنب وسائل الإعلام وصف زعيم الصرب كاراداتش بالمسيحي.. ويقف الصراع في البوسنة من منظور إسلامي شاهداً جليّاً على مبدأ الكيل بمكيالين؛ فلقد تعرض عضو صغير في الأمم المتحدة للعدوان والاحتلال من إحدى دول الجوار، ولكن تدخل الأمم المتحدة اقتصر على المصالح البترولية»[1]، وكذلك ما حدث من مجازر في رواندا، وجنوب أفريقيا، والهند حيث قتل بين سنتي 1991 - 1992 أكثر من 200000 بين رجل وامرأة وطفل، وقبض على 70000 ألف من الرجال والنساء، وقبض على ابن الشاعر الكشميري مشتاق، ثمّ ألقي به في زيت مغلي وهو حي، وحرقوا 418 مسلم بالنار، كما أحرقت مدرسة بمن فيها من الأطفال فمات منهم 200 طفل، وأحرق 300000 منزل، وهتك عرض 100 امرأة في قرية دوكتن باسيواه، بينهم طفلة عمرها 7 سنوات وعجوز عمرها 85 سنة. ثمّ تجددت الاشتباكات مؤخراً حول أحداث مسجد بابري، الذي حول إلى معبد، وفي بورما تعرض 4 ملايين مسلم للذبح والإكراه على الزنا، وفي

(1) رحلة إلى مكة، د. مراد هوفمان، ص: 210، طبعة 2001، مكتبة العبيكان، الرياض.

كمبوديا قامت عصابات الخمير بقتل جماعي لما يقارب نصف مليون مسلم، وبتعذيب وإكراه على الزنا.. والثورة الثقافية في الصين، وإرهاب الدولة في أمريكا الجنوبية، وكذلك ما حدث في ديارنا من أحداث دامية.

الرسول ﷺ ودينه دين السلام:

الإسلام قد كرّم الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70] وأبعد عنه شبح الحرب بنهيه عن العلو في الأرض والفساد التي هي من أسباب الحروب، وبأمره بالتقوى والعبادة لله والتي تعين الإنسان في مواجهة الطاغوت الذي يعبّد الإنسان، وتنجيه من اتّباع الهوى أو تأليهه أو الاستجابة لميل العدوان.. فلا ينشأ عنه اغتراب ديني، ولا ميل عظيم مع الشهوات الذي يقحمه البعض في إطار الحريّة.

وفي القرآن يوجّه شعور الرهبة والرغبة من المؤمن لربّه، فهو من رهبته لربّه لا يؤذي الأبرياء ولا يرهبهم بدون جريرة، وقد ذكر فيه الاسترهاب السحري بما يحذّر منه وينفّر، ويفرض أن يتوازن الرهب من الله سبحانه مع الرغب حتى تستقيم نفس الإنسان.. وكان الرسول ﷺ تعزّ عليه معاناة الناس، حريصاً على هداهم، رحمة للعالمين، كما بيّن القرآن، ولم ينكر عدوه خلقه.. وقد بقي المؤمنون يُرهبون 13 سنة، ولم تتنزل آية بردّ الإرهاب بمثله، بل كانت الدعوة إلى الحوار والخطاب، للوصول لكلمة سواء، والدعوة للجدال بالتي هي أحسن، والثناء على بعض نصارى العصر: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: 82] ولم يكن لجوءٌ إلى الإكراه في الدين، أما العمليات النادرة من القتل الفردي والجماعي فكانت بعد أن طفّ الصاع -

كما يقال - فدافعوا عن أنفسهم تجاه هجمة الشرك خشية من الإبادة الجماعية، وعمّا يملكون، وعليه يغارون.. وبقي النصارى آمنين.

ولقد أكّدت الوثيقة المرقمة 1373 الصادرة من مجلس الأمن حق الدفاع عن النفس، وفق ما ذكر في ميثاق الأمم المتحدة بقرارها المرقم في 1368/ 2001. بينما أدان الإرهاب الذي يدفع إليه التعصّب والتطرّف، لا الدفاع الشرعي، وعرّف مجمع البحوث الإسلاميّة في الأزهر الإرهاب في 15 شعبان 1422 هـ، 9 نوفمبر 2001م بأنّه: «ترويع الآمنين، وتدمير مصالحهم، ومقوّمات حياتهم، والاعتداء على أموالهم وأعراضهم وحرياتهم وكرامتهم الإنسانية، بغياً وفساداً»[1].

وقد أقرّ القانون الدولي حق الشعوب في الاستقلال، ودفع الظلم والتبعيّة لا فرق بين من يقترفها قريباً أو بعيداً، وكذلك فعل المؤمنون من قبل في عصر الرسالة.. فلم يلجأوا إلى القتال إلا بعد أن بغى عليهم قومهم، وشنّوا عليهم حرباً كلاميّة وإعلاميّة، وحطّوا من شأنهم، وظلموهم، وعذبوهم، ومنهم من مات تحت التعذيب أو أكره على التلفظ بكلمات كفر، وأخرجوهم من ديارهم «التهجير الإجباري»، وحاولوا قتل رسولهم ﷺ، أو إثباته وفرض الإقامة الجبرية عليه، أو إخراجه من بلده.. وهو يريد هداهم.. كانوا فئة كما في القرآن «قليلة، أذلّة، مستضعفون في الأرض، يخافون أن يتخطفهم الناس»، والتخطّف تصريف خاص أقوى من الخطف والاختطاف، فهو التخطّف، لا يأمن فيها المؤمن، لا يستقر، لا يستطيع أن يتاجر ويزرع ويبني حضارته، لا يأويهم أحد أو ينصرهم.. لم تكن هناك منظمات دوليّة لمراقبة حق الإنسان، فهاجروا ولجأوا إلى ملك نصراني مُقْسِط، لكنّ الكيد لم يتوقف، وهكذا..

(1) إنسانية الإسلام، مارسيل بوازار، ترجمة د. عفيف دمشقية، ص: 276، ط، سنة 1980، دار الآداب، بيروت.

وكان هناك تمييز ديني ظالم من متعصبين لدين شفاهي أسطوري قائم على الزعم والآبائيّة الجامدة.. بينما كان الإسلام أحسن الحديث ولا يزال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: 23].. الحديث في مواجهة القديم الغابر أو الحداثة الباغية.. وهكذا فقد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].. فهم كانوا يقاتَلون سلفاً فأمروا بالصبر حتى بلغ الأذى منتهى الطاقة، وكشأن كلّ تجمع مدني، وحكومة ولو محدودة الرقعة المكانية، تحيطهم تجمعات مخيفة ومرهبة، أمروا بإعداد قوة لكيلا تقضي عليهم هذه القوى المناوئة الجاهلية؛ فالقوة كانت ردعيّة، والأمة لا تقوم بغير دولة، والدولة لا تحفظ حدودها وساكنيها بدون مؤسسات عسكرية، لكنّ القوة لم تكن إلا لإرهاب عدو لم يختاروه، ولم يصطنعوه، ولم يستفزّوه، ولم يستجيبوا لاستفزازه، بل هم عادوا الله من قبل، لأنّهم لم يؤمنوا بإله واحد، بل عنّفوا من دعا إلى ذلك وعادوه، والعدوان لا يخلو من إيذاء ومحاولة استئصال، وكان هناك آخرون من المتربصين أو الذين يعملون مع العدو سراً ويتجسسون لهم، ويبحثون عن فرص ومجموعات ضعيفة لينقضّوا عليها: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمۡۖ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60].

إنّه القتال التحرّشي المفروض لمجتمع الحرب والنقض والنكث على مجتمع السلم والوفاء والوثيقة، فكان على المؤمنين أن يموتوا ويهلكوا، أو يرتدوا إلى الخلف والتخلّف، أو يُستضعفوا ويُستملكوا.. وقد كانت أول مواجهة في بدر كما بيّنت الآية خروجاً بالحق، وكان المؤمنون كارهين لذلك، وكأنّ الرسول ﷺ لم يكن يتيقن ما يراد بالخروج، أو لعلّه ظنّ أنّ

الخروج لقطع إمداد اقتصادي للعدو ممثلاً في قافلة تجارية لم يشكر أصحابها ربهم على هذه التوسعة الرزقيّة؛ فلم يعبدوا ربّ البيت كما ذكر في سورة قريش، وقد ذهب بعضهم إلى أنّ الخروج كان لتعويض المتضررين الذين فقدوا أملاكهم ومساكنهم وأموالهم بأثر الهجرة وتعطّلت تجارتهم ومكاسبهم، لكنّ الآية تبين أنّ الخروج كان لإحقاق الحق وإبطال الباطل، وذلك كان سبب كره فريقٍ للخروج: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال: 5].

وابتسار الحدث وتأويله دنيويّاً لا يوافق الآية، كما كانت إراءة العدو في نظر المؤمنين قليلاً وتقليلهم في أعينهم حجة في تقدير المواجهة من الله سبحانه، لا طلباً لغنائم، وكان قد سبق كلّ ذلك ما أسلفنا من إيذاء بالباطل، وكذلك لم يكن القتال إلا للذين يقاتِلون وحسب: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: 190]؛ فالقتال من أفعال المشاركة؛ ولم يكن أمرٌ ابتدائي بالقتل ولا بالقتال، بل كان هناك طرف مصرّ على القتال يريد أن يذلّ الآخر ويطوّعه ويرعبه ويفتنه.

ومع ذلك أعفي النساء والأطفال والرهبان المنقطعون والشيوخ الفانون والمزارعون والعاملون في المؤسسات المدنيّة غير المقاتلين، فلم يقاتَلوا.. والإسلام كما يقول «بوازار يحصر»: «المعارك في أغراض عسكريّة بحتة، ويفرض تمييزاً واضحاً بين المحاربين وغير المحاربين، وذلك بقصد التخفيف من عواقب القتال»[1]..

وكان الجهاد في سبيل الله سبحانه كما بيّنت الآيات، ولم يكن المراد من القتال إلا إخراج المقاتل من سياق المواجهة الصداميّة، وليس لنزعة الإهلاك وشهوة القتل والفخر، أو لفتح أسواق وجلب خامات، أو لتعصب ديني، أو

(1) إنسانية الإسلام، ص: 278.

قومي، أو عرقي، أو أحلام إمبراطورية.. وقد بيّن حديث مروي أنّ من قاتل لحميّة أي حرارة جسدية وشعور أدنى وغير موجّه في سبيل الله سبحانه بل بدافع قبلي أو قومي أو عرقي، أو شجاعة أي لإظهار القوة وإعلانها، أو رياءً أي لإراءة الآخر بطولته وعلوّه وتفوّقه العسكري أو التقني أو مهارته القتاليّة المحض، لم يكن ذلك في سبيل الله سبحانه[1].

ومن وجّه إلى الإسلام افتراء تشريع القتال المنفعي أو الغنائمي البحت أو التوسّعي الإمبراطوري فهو آثم إن لم يكن جاهلاً، إنّما كان الآخر يحلّ ما يصادفه، ويجرد المقاتلين من كلّ شيء، فكان ذلك مقابلة بالمثل، وليست الأنفال للحروب القوميّة أو البغي أو تكفير شعب بفتاوى تعميمية بل كانت تعويضاً للمتضررين.. وكما يقول مارسيل بوازار فقد كان هناك: «تحريم النهب على المجاهدين»[2].. وطيلة وقت المعركة كانت: «تشمل القواعد المعمول بها في المسار الحربي بأكمله، منذ بدء المعركة حتى انتهائها، وتستمد قوتها الإلزامية من خشية الله»[3].

وذكر من خلق الحرب وتقواه لدى المؤمنين: «امتناع المحاربين المسلمين عن سفك الدماء من غير سبب»[4]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7] وكذلك النهي عن: «تدمير العقارات ما دامت الضرورات العسكرية لا تقتضي تدميرها»[5].. إذ أنّ الإسلام لا يحلّه: «ويمنع

(1) حديث رواه بهذا المعنى الإمام البخاري ومسلم وغيره من أئمة الحديث والنص الذي في رواية مسلم هو: «سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً وَيُقَاتِلُ رِيَاءً أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ» رواه مسلم برقم 3525.

(2) إنسانية الإسلام.

(3) المصدر نفسه ص: 276.

(4) المصدر نفسه.

(5) إنسانية الإسلام.

أعمال التدمير التي لا طائل تحتها، واللجوء إلى الوسائل الحربية التي تحدث خراباً على نطاق واسع، وكل إجراء عشوائي، كتسميم مصادر المياه أو الحصار الغذائي، الذين قد يصيبان المدنيين الذمّيّين الذين لم يشاركوا في القتال»[1]، وكذلك: «الإجراءات الخسيسة كالغش وتعذيب العدو الذي هو أسوأ من الجريمة، واستخدام الأسلحة التي تسبب آلاماً لا فائدة منها»[2]، ومن آليات الحرب: «ينبغي أن يسبق القتال دائماً إعلان أو تحذير كيلا يؤخذ العدو على غرة»[3]، وحين كان من الممكن أن يخدعه من يدعوه إلى السلام المبطّن بالكيد كان الله يقول له: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62] ولم يكن له إذن بالكيد، وما روي من كون الحرب خدعة، وقضية نعيم بن مسعود كان لوصف واقع ما بين الفئتين المتحالفتين اللتين أرادتا القضاء على المؤمنين وإنهاء وجودهم من اختلاف وعدم ثقة، لا كذباً.. فقد كانوا كذلك يتربص بعضهم ببعض.

وكذلك من التقوى عدم قتال من لا يقاتل، ودفن الأشلاء والجثث، وتحديد زمن المعارك بهدنة تلقائية أمدها أربعة أشهر، مع أنّ الغير منهم قد يميل إلى الحرب الاستئصالية والإفناء بقصد تشتيت قوة العدو.. ويمكن أن يفسر النهي عن الاعتداء والتقوى في القتال مما أمر الله سبحانه به، بأمرٍ ووصية ونصح كان الرسول ﷺ وخلفاؤه يقدمونه للمقاتلين؛ كالنهي عن قتل المسالمين، وحين يتم النصر أو تكون المعاهدة أو الانسحاب يتوقف القتال.. وقد أشاد الصليب الأحمر نفسه بأنّ حق الإنسان في الحروب الذي فصّله القانون الدولي خارج من عباءة الإسلام «راجع محاضر الندوة المقامة

(1) إنسانية الإسلام، ص: 276.

(2) صناعة الإرهاب.. في البحث عن موطن العنف الحقيقي، د. عبد الغني عماد، دار النفائس، ط1، سنة2003، بيروت، ص: 158.

(3) إنسانية الإسلام، ص: 276.

في الأردن حول الإسلام والقانون الدولي»، بل إنّ جندياً أمريكياً اسمه جيمي ألّف كتاباً عن تواجده في العراق ذكر فيه أنّه قرأ القرآن فأعجب بدعوته لحفظ الكرامة الإنسانية.

لقد اضطر المؤمنون للقتال عنها وهم يكرهون ذلك. لم يكونوا إلا باحثين عن رضا الله سبحانه وحق الإنسان ولو بالشهادة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216] وبرهان ذلك أنّ نصارى نجران لم يقاتِلوا ولم يقاتَلوا.. ومعاهدته ﷺ معهم محفوظة في الوثائق العالميّة[1].

أمّا يهود بني قريظة فقد نقضوا عهدهم مع الرسول ﷺ، وانحازوا إلى العدو المشرك الأمّي، وفضّلوه في أشدّ الظروف وأعسرها، واستفزوا المؤمنين، وقد عقدت ندوة تلفزيونية عن ذلك وأمور أخرى، لتفسير ذلك الحدث العقابي وتفصيل ذلك في كتاب غزوة بني قريظة لمؤلفه محمد أحمد باشميل، وكما قال الله سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]، فالله أطفأ نار حربهم؛ ممّا يظهر بأنّ الإسلام لا يرضى عن الحرب الموقدة المفتعلة. لا توجد آية تدعو للانتقام أو صدام الحضارات، بل تفاعلها وبقاء سمات الأمة المؤمنة في حالة انغلاق الآخر على حضارته. وما يزعمه بعض المستشرقين وتكتبه بعض الصحف بأنّ القرآن نسخت فيه آية نفي الإكراه بآية السيف، فالحق فيها أن لا اختلاف بينهما، فمن له دين موحى به أي «من أهل الكتاب» - إذ هكذا يسمّيهم القرآن - لفصلهم عمّن لا دين له ولا كتاب موحى به - لم يُكره فرديّاً

(1) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها محمد حميد الله، ص: 175 - 190، ط7 سنة 2001م، 1422هـ، دار النفائس، بيروت.

ولا جماعيّاً على الإسلام، والفرق الأخرى التي زاغت دعيت إلى مراجعة تحريفاتها.

لقد كان هناك مستكبرون يخرجون الناس من النور إلى الظلمات، وذلك هو البغي، والعالم متفقٌ بأعرافه على كفّ شره.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]. . فالمشركون اجتمعوا وقاتلوا المؤمنين كافة، فماذا يفعل المؤمنون؟ وإلا لم أوقف الطغيان الهتلري وغيره؟. . وكلّ آية يُعمل بها بما يقارب سياقها التنزيلي في الواقع. . وهناك كلمات مثل الإرهاب الديني والسياسي والفكري والقومي والطائفي، والقرآن يجعل ذلك من الفتنة ولا يرضاها، وإن كان من يقوم به يريد إكراه أحد على باطل أو مذهب لا يطمئن إليه، واتخاذه وسيلة لإفقار شعوب أو تجهيلها أو تفريقها أو ظلمها، فمواجهة هذه الفتنة كتبت على المؤمنين بما يمكن، وتخليص الآخر منها حتى لا يستفحل الشر وجنوده. حيث لا ينفع الحوار والتظالم والشكوى. وحين كان القتال أو الشروع به قائماً من الآخر. . ثمّ حين كان الاعتزال وإلقاء السلم تتوقف كلّ العمليّات القتاليّة. . ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90].

والملفت للنظر أنّ الأسرى كانوا يُمنّ عليهم أو يُفدون بمبلغ مالي محدود لسدّ نفقات الدفاع والأضرار الحربيّة التي ألحقت بهم. وقد تعرّض د. «محمد أركون» إلى قضية الجهاد، وكان ينزع الآية من سياقها كآية سورة التوبة ليعلن أنّ الإسلام يدعو للعنف، فهو يسمّي عنفاً رد موجة الشرك البدائي القاتل المتربّص الدوائر، حتى يعلن أصحابه كفّهم عن القتال والتوبة عن

العدوان، ثم ليكون أفرادها لا معذبين أو أسارى حرب بل إخواناً في الدين.. مع أنه يقر بلجوء عقل التنوير للعنف، لفرض شرعيّة سياسية، وأنّه إرهابٌ حديثٌ في قرنين، وأنّ الرأي العام شُكّل لـ: «يقوي مخياله الخاص أو أحكامه المسبقة عن «همجيّة المسلمين»[1] المزعومة، كما «ذكر إدوارد» سعيد أمثلة على غياب الميزان في تقويم تاريخ المسلمين، بتصويرهم راكبي جمال إرهابيّين، شهوانيّين، ومعادين للحضارة وغير مؤهلين لحكم أنفسهم، في كتابه «الاستشراق»[2].

لماذا أجلى الرسول ﷺ يهود المدينة؟

ولم يقاتل الرسول ﷺ اليهود في المدينة وضواحيها إلا بعد دعوتهم للإيمان بالدين الواحد، وذكر كثير من أنبيائهم وملوكهم ووقائعهم بكلّ التقدير والتفضيل في سورٍ وآيات، لإخراجهم من عزلتهم، وشفائهم من عقدهم النفسيّة القديمة ونظرتهم الاستكبارية للنفس، وتهوينهم من الآخر، والعمل لإفنائه، ونكثهم لعهدهم ونقضهم للميثاق الذي اعترف بكونهم أمة لها حقها في الحياة الكريمة، وكيدهم للمؤمنين، وتعاونهم مع أعدائهم، ومحاولتهم قتل الرسول ﷺ. فقد خطط يهود خيبر مع قبيلة شركيّة لقتال الرسول ﷺ والقضاء المبرم على هذه الفئة القليلة وبتلك النظرة الإفنائيّة التي ذكرت في التلمود.. ولم تكن حرباً وعداءً على الساميّة؛ فالعرب يحسبهم العلماء على الساميّين، كما أنّهم لم يبادوا معاملة بالمثل كما ينصّ كتابهم التلمود، بل أجلي بعضهم خلاصاً من تربّصهم ورصدهم لنقاط ضعف المؤمنين، وكما

(1) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، د. محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، ص: 230، ط1 سنة 1999، دار الساقي، بيروت.

(2) الاستشراق، إدوارد سعيد، ص: 131، ص: 236.

أجلوا من إسبانيا أيضاً قبل النصارى.. وإذا كان ما حدث تفسيره منع التعدّدية الكتابيّة وعدم تحمّل وجود المخالف فلماذا أبقي نصارى نجران؟ ولماذا بقي اليهود والنصارى في بلاد المسلمين؟ ولماذا فرّ اليهود إليها من فتنة نصارى الأندلس سنة 1492 وكذلك من الغرب من بولندة والنمسا وألمانيا وإيطاليا، وآواهم العثمانيّون؟. وكان يقدّر عددهم بـ 70000، وكان 60 بالمائة من سكان سالونيك يهوداً، والحاخام باش يشرف على الطائفة، وينتخبه اليهود أنفسهم، ثم يثبته الباب العالي، وكان تدفق السفارديم قوياً وهم معروفون بالعزلة، وكما يقول هاملتون وجب فقد تزعّموا الملل الأخرى.

انتشار الإسلام بالسيف في الميزان:

إنّ فرية انتشار الإسلام بالسيف مردودة بأنّ كثيراً من الشعوب أسلمت بدون أن يدخلها حكامها في حرب عبثيّة كشعوب جنوب شرق آسيا مثل ماليزيا وأندونيسيا وغيرها.. ومن آثر حكامهم الحرب وجعلهم وقوداً اختار أكثرهم الإسلام عن بيّنة، ومن بعد أن تبيّن لهم أنّ من يرضى بدين الحق الذي مع هؤلاء لا يُستتبع أو يُستنزف أو يُظلم.. كما كان أباطرة الروم يفعلون.. وأنّ من أسلم لا تكون لهم ردة جماعيّة إلا بالفتنة القاهرة كما في الأندلس، فما أن تفكك الاتحاد السوفييتي الذي أعلن الإلحاد حتى عاد المسلمون إلى دينهم.. وبعض من يردد هذه الفرية مستنسخ للشبهات الغربيّة، إمّا لدراسته في الغرب دون دراسة موثّقة لدينه، أو كرهه للالتزام الديني التفصيلي.

ورغم عالميّة الإسلام ورحمة الرسول ﷺ للعالمين فإنّه لم يبدأ الحرب على الدول المجاورة له إلا بعد الدعوة إلى الكفّ عن الظلم، وقبول الحق، فقد أرسل ﷺ رسائل إلى كسرى وقيصر وغيرهم من الملوك، فمزّق كسرى

الرسالة غروراً، وآثر قيصر منافع الحكم وامتيازاته على حق شعبه في اختيار الدين الحق.. بينما كان المسيح عليه السلام مرسلاً إلى بني إسرائيل خاصةً، ولم يرسل رسائل إلى حكام العالم.. وقد ذكر الأستاذ «عبد الودود شلبي» في حوار مع بعض الأوروبيّين ذلك فتعجبوا، وكأنّهم لم يسمعوا به.. أمّا الواقع الذي كانت تعيشه الشعوب مثلاً فلم يكن خيراً؛ ففي إمبراطورية الروم كان الوضع: «أليماً ومرّاً.. لم يكن هناك أمل في أي شيء، ولم تكن هناك عدالة أو مساواة، كانت الحرب بين المسيحيّين واليهود سجالاً، والمذابح بين الطائفتين فضيحة وعاراً، كان الظلم والتفرقة هي السمة المميزة لنظام الحكم والقائمين على هذا الحكم، لقد تحول الملوك إلى آلهة، كما تحول رجال الدين إلى سفّاحين وقتلة، كما تحول الفسق والدعارة إلى طقوس مقدسة»[1]... ولذلك يذكر هنري ماسّيه بأنّ المسلمين كانوا:

«يُستقبلون كمحررين تقريباً من قبل أقباط مصر، ومن السوريّين السعداء بخلع النير البيزنطي، والأمر كذلك في بلاد فارس وإسبانيا، لأنّ الحكومة كانت قد أثارت السكان»[2].. معترفاً بأنّ المسلمين لطّفوا هذه الإدارات المزعجة.. أمّا الدولة العثمانيّة فقد تضافرت عوامل داخليّة وخارجيّة على تفكيكها، ولم تكن بذلك السوء الذي صوّره من تضررت منافعه من تحريرهم.. وقد كانت سياستهم نحو البلدان أفضل من غيرهم، ولهذا أسلم كثير من الشعوب؛ يقول «بول كولز» في كتابه: «العثمانيّون في أوروبا»:

«إنّ العثمانيّين لاقوا ترحيبات متلاحقة باعتبارهم محررين من قبل الفلاحين في البلقان ومن قبل سكان الجزر اليونانيّين، لأنّ سادتهم الأوروبيّن

(1) هل انتشر الإسلام بالسيف، ص: 41.

(2) الإسلام، هنري ماسّيه، ترجمة بهيج شعبان، ص: 86، ط2 سنة 1977، منشورات عويدات، بيروت.

قد أخضعهم استغلال اقتصادي بشع، وكان استعدادهم لقبول الحكم العثماني يتردد صداه في بعض مدن إيطاليا»[1].

أمّا القصاص في الإسلام فمع وجود الحدود فيه على مقترفي الفواحش والفساد في الأرض، ففيه مساحة للعفو والتوبة والاستتار، وأخرى يُفوّض فيها الأمر لله، وشروط بعضها مشددة، ولم تقم الحدود إلا نادراً لتوفر التقوى والعدل والرحمة والأمن الاجتماعي والسياسي.

فتنة السلاح وتقنيات الحرب والنهي عن التعذيب:

وقد كانت آثار الأسلحة فرديّة، واخترع نوبل الديناميت، ثم كانت القنابل العنقوديّة والذكيّة والانشطاريّة والقذرة والكيميائيّة التي كانت تترك آثاراً وتشوّهات وعاهات وموتاً جماعيّاً.. فحبذا لو توصّل العالم لمنع استعمالها جميعاً، وقد أبيدت شعوب بالأسلحة الحديثة أو أبقيت كشعوب متحفيّة.. والاكتشافات الجغرافيّة نافعة لكن حبذا لو كانت محايدة فقد كان فاسكو دي غاما: «قد استقر صليب مذهب معلّق في منديل قرمزي يحيط بعنقه، فقد كان في سبيله إلى الانطلاق في رحلة اكتشاف هي أيضاً حملة صليبيّة مقدسة»[2]، أمّا التعذيب فحدّث ولا حرج فبينما المسيح عليه السلام يدعو إلى العفو والرحمة كان بعضهم يسيئون التعامل: (فقد سجّل الأب مونكلارو في هدوء ظاهري الابتكارات الغربيّة التي استخدمت لقتل المسلمين - في أفريقيا أثناء قيامهم بالتنصير - فقد تمت خوزقة البعض أحياء، وقيّد البعض إلى الغصون العليا في الأشجار، مع اجتذاب الغصون عنوة وإطلاقها فجأة، مما ينجم عنه تمزيق

(1) الأقليّات والسياسة في الخبرة الإسلاميّة من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانيّة، د. كمال السعيد حبيب، ص: 261، ط1، سنة 2003، مكتبة مدبولي، القاهرة.

(2) إمبراطوريّات الرياح الموسمية، ريتشارد هول، ص: 228، ترجمة كامل يوسف ط سنة 1999، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، أبو ظبي.

الضحايا أشلاء، بينما قُطّع آخرون تقطيعاً من ظهورهم، باستخدام الفؤوس، وأطلقت قذائف المدافع على غيرهم»[1]. . وقد قتل سليمان الحلبي بالخازوق في مصر. . وقد نهى الرسول ﷺ عن التعذيب والحرق بالنار. . وقال:

«لا يُعذب بالنار إلا رب النار»[2].

حق الإنسان البريء وجدلية العفو والانتقام:

ورغم أنّ المؤمنين عذّبوا وأخرجوا وقوتلوا ظلماً فإنّه بعد فتح مكة لم يجر أي تحقيق أو تعذيب، لا التعذيب النفسي ولا الجسدي، فضلاً عن أنّه لم يحدث إرهاب أو اعتداء شخصي أو جماعي، ولا تهجير أو هدم دور، أو خطف نساء، أو سجن أحد، أو اقتحام بيوت، وإرعاب أهلها، أو التهديد بالسلاح، أو قطع الماء والنوم والغذاء عن السكان. . كما عفا الرسول ﷺ عن أعدائه الذين قاتلوه وقتلوا ذوي قرباه وأصحابه، ولم يستثن إلا نفراً قليلاً كانت إساءاتهم بالغة وذات سمة إيذائيّة. . وحتى لو كان استعمال التقنية المعاصرة موجودة في التعذيب لما استعملها الرسول ﷺ وآله الأبرار وصحبه الأخيار، فضلاً عن البذاءة والإيذاء النفسي. . وكلّ ذلك ممّا حرّمه هذا الدين، ولم يكن موجوداً في خير القرون، وكلّ ما يروى من ثارات وانتقام بعض الحُكّام كان مخالفاً لرحمة هذا الدين ومنها الإجهاز على الجرحى والتمثيل بالجثث، وآية: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126] التي تعلم بالمثليّة في العقاب فهي هنا في حدود الشريعة التي لا ترضى بانتهاك إنسانيّة الإنسان. . وحتى في هذه

(1) إمبراطوريات الرياح الموسميّة، ريتشاد هول، ص: 252، 253.

(2) رواه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار برقم 2673، وهو حديث صحيح.

الحدود فالصبر خير.. والعفو أفضل.. ومنه استعجال الانتقام قبل تكون دولة المؤسسات الشريعيّة.. وكلّ ما حدث من إيذاء في تاريخنا مردود، ويراجع في ذلك كتاب: «تاريخ التعذيب وأصول تجريمه في الإسلام» محمد ابن طارية وآخرون.

وحين تكونت الفئة الصالحة النخبة، وأقيمت دولة الحق والعدل، وخُفِّفت الفوارق بين الطبقات، ومُنِعَ البغي، وهُيِّىء الوسط للتربية والعيش الكريم والحياة الطيبة، بل قبل ذلك، حرّم كلّ أشكال الحرابة والسعي في الفساد والأرض والإرهاب، ووضعت لمرتكبيها عقوبات حسب درجة جرمهم من محاربة الله ورسوله ﷺ، والطعن في الدين وتهوينه والافتراء عليه، ومنع الحكم به أو الإكراه على دين آخر لا يوازيه، إلى الفساد وتلويث البيئة ومصادر الحياة، وخلخلة الأمن، وترويع الآمنين، والسطو على المؤسسات، وإرعاب المسافرين في الخطوط البريّة والبحريّة، ويقاس عليها الخطوط الجويّة المعاصرة، وغصب الممتلكات، أو نشر الأمراض والفايروسات، وقتل الأبرياء أو خطفهم، أو اتخاذهم رهائن وطلب فدية من ذويهم، أو التعرّض لأعراض الناس وإكراههم على الفواحش، والعقوبات متدرجة حسب الجرم.. ولا يُصدّق من زعم أنّه لم يوجد مكتوب عن حق الإنسان في الإسلام، فالقرآن فيه كلّ حكمٍ يؤمّن حفظ الإنسان وحقّه في حياة كريمة، لا فقط حق الحياة بل تكريمه، وعدم تخويفه، أو ذكره بسوء، وحفظ سره، وعدم التجسس عليه، أو غيبته أو تغييبه، أو إكراهه على دين أو مذهب سياسي، أو إرغامه على الطاعة العمياء.. كما فصّل الحديث ذلك.. أو الضغط على الدولة العادلة لابتزازها، أو الخروج على شريعتها الحق، أو أخذ البريء بجرم المجرم ومعاقبته. أو هدم داره لعدم قدرته على منع منكر: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164].

ولم تكن الإعلانات العالميّة المتأخرة لحق الإنسان سوى تفاعل جميع الحضارات، ولكنّه لم يعمل بها إلا قليلاً، والشاهد مجازر الأقليّات في العالم.. ومنهم وفي مقدمتهم المسلمون.. والإسلام يلزم أتباعه ويفرض عليهم إعطاء حق الآخر، لا مجرد النصّ عليه.

وفيه يوجد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحفظ الحق والخير وحق الإنسان، لكنّه له حكمه، بأن يكون الأمر بالمعروف، في منهاجه ووسيلته ومراده وعاقبته، وأن يكون النهي عن المنكر الذي لا خلاف في نكره بحيث لا يؤدي إلى منكر أكبر أو شرّ أعظم.. وحين تتولى الدولة في شكل مؤسسة الحسبة هذا الأمر يرفع معظم هذا الأمر من مسؤولية الناس.. وحين ترفع أشكال الظلم عن الناس تزول صور الحزن إلا من ظلم وأثم.

وفي القرون التابعة كانت بعض الفرق التي أرهبت المسلمين غير مقبولة كالخوارج، فلجأوا إلى الاغتيال السياسي، وكذلك الناقمون على الخلافة الراشدة التي أزالت حكم الأكاسرة لجأوا إلى نفس الوسيلة حين اغتالوا عمراً وعلياً وعدداً من الخلفاء، وهؤلاء لم يهتدوا بالإسلام في رحمته وسعة علمه وواقعيّة حكمه، بل خالفوه، ثم كانت فتنة الدهماء التي تحمّس لها البعض ولم يحسنوا الإصلاح الذي زعموه فأدى بهم ذلك إلى الحصار الإرهابي الظالم لخليفة مظلوم تصرّف في سياق عصره وفق خصوصيّته، ولم يأمر بعقاب الثوار أو سجنهم أو قتلهم، فقتل أيضاً مرهوباً لا مرهباً.. وقد ركز بعض الإخباريّين على الفتنة وآثارها حتى ليكاد القارىء يظنّ أنّ أكثر ما كان يشغلهم إيذاء الآخر.. وبولغ في هذا الجانب وفي سرد تفاصيل مملّة عن المواجهات المفتعلة الدامية.

ولم يخل حكّام ما بعدهم من هنّات، كانت من عواملها تدنّي القرون، وكثرة الأعداء.. ولا يسأل الإسلام عن الحكم الجبري والوراثي، وعن القسوة التي اتسم بها بعض الحكّام.

ودين الله يدعو أهل الكتاب جميعاً إلى كلمة سواء وما يقتضيه من نبذ العنف بكلّ صوره، والاجتماع على إيمان خالص بالله، دون عبادة غيره ممّن هو ليس إلٰهاً، أو اتخاذ شريك خُلق من قبل ولم يك شيئاً، وعدم اتخاذ أرباب من الناس: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

ويمكن أن يستبدل صراع الحضارات الذي دعا إليه «صموئيل هنجنتون» بتلاقيها على الحق، ونهاية التاريخ التي بشّر بها «فوكو ياما» لم تكن بلا مآسٍ وإحصائيّات عنف، ممّا جعله يبيّن نذر الليبراليّة حين تؤخذ على علاتها في كتابه التصدّع العظيم، وبدلاً من تأجيج العداء، كما كان كتّاب يخوّفون من دين يؤمن بجميع الأنبياء، ويجعل للمسيح عليه السلام درجته الخاصة ويعرف فضله، وهالهم إقبال بعضهم عليه، فحذّر من: «أنّ الإسلام هو الدين الأسرع نموّاً في الولايات المتحدة»[1]. وكذلك أفرط بعضهم في سوء الظن ممّن يدعو ليجد هذا الدين أثره في الحياة وتحسينها وتقدمها: «لا يوجد شيء اسمه الإسلام المعتدل»[2]، فإذا اختار بعضهم هذا الدين وهم في أوج تقدمهم العلمي وبلا إكراه على هذا الاختيار فهو موضع دراسة لا كراهية، بينما حذّر «نعّوم تشومسكي» وغيره من الموازين المزدوجة، وحين تتفق دول العالم على إعطاء حق الله والإنسان والدخول في السلم كافة وتوثيق التعاون على الخير، يلتزم المسلمون بذلك الميثاق، بدون موازين مزدوجة أو إعطاء حق متميز للبعض لا على أساس الحق بل القوة والعدد والغنى.. وكفّ الحملات

(1) مستقبل الإسلام، مجموعة من العلماء.. مقال د. لؤي صافي، ص: 381، ط1 سنة 2004، دار الفكر، دمشق.

(2) المصدر نفسه، ص: 383.

الإعلاميّة ضد دين ملايين المسلمين خطوة في طريق السلام العالمي المنشود.

ونذكر بعض مقولات الآخر كشهادة على أنّ الإسلام لم يفرض بحد السيف؛ فقد نفى ذلك السير توماس أرنولد[1]. كما يذكر إسلام عدد مذكور من الصليبين تأثراً بأخلاق المؤمنين، وإسلام اليهود في إسبانيا الذين كانوا يعمدون إكراهاً وكذلك العبيد المنصّرون إجباراً وغيرهم من «النبلاء والعامة».. وكما يقول عبد الرحمٰن عزام: «فسواءً أكان المسيحيون الذين تركوا دينهم قد فعلوا ذلك إعجاباً بالدين الجديد وبأصحابه، أم بغضاً لما هم فيه من فرقة، أم يأساً من الإصلاح، أم فراراً من أذى بعضهم لبعض، أم إهمالاً من قساوستهم ومرشديهم، أم طمعاً في دنيا، أم هدى من الله؛ فإن هذه الأسباب المتنوعة والتي يشير إليها المؤرخون من أهل الملل الأخرى في تعليل إسلام المسيحيين، أدلة على بعد السيف»[2] عن تفسير قبول الإسلام.

ويأخذ «عبد الرزاق نوفل» عن ويلز في كتابه «معالم تاريخ الإنسانية» في كتابه «محمد رسولاً نبياً أنّ الإسلام خير منهاج اجتماعي وسياسي، وأنه قبل لأنه كان يجد شعوباً: «تسلب وتظلم ولا تعلم.. وحكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أي شعب».. ويذكر أرنولد توينبي أن النصارى اليعاقبة القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح أعانوا المسلمين لأنهم «لم يأسفوا لتغيير الحكام»[3]، وكذلك فعل الرعايا النساطرة في الإمبراطورية الساسانية لأنهم: «لم يكونوا يكنّون ولاءً فعالاً لسادتهم الساسانيين»، نفسه ونفس الصفحة. ومن هنا يكون فيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب» قد خالف الصواب في تفسير انطلاق الصحابة خارج الجزيرة بكونه خروجاً من البادية إلى الحضر

(1) الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزام، ص: 310.
(2) المصدر نفسه، ص: 310.
(3) تاريخ البشرية، أرنولد توينبي ج2 ص: 89.

لكون باديتهم قاحلة أو لفتح منافذ للثورة القبلية، فكثير منهم قد ماتوا دون أن يصلوا إلى شيء من الدنيا، وكثيرون عاشوا بعد ذلك حياة الفقر أو الحرمان الاختياري الذي سمي بالزهد. . واختفت في العهدين النبوي والراشدي الأهواء القبلية إلى حد كبير. . ولولا ذلك لم يقبل الإسلام. .

إن «مونتغمري وات» نقض هذا التفسير قائلاً: «ليس هناك برهان وثيق على سوء الأحوال المناخية في الصحراء؛ فلقد كانت الحياة فيها مقبولة، ونسمع عن صحابة النبي ﷺ أنهم أثناء الفتوحات خارج الجزيرة كانوا يعودون أدراجهم إلى حياة الصحراء التي يحبونها»[1]. . كما ردّ على ليوني كايتاني تفسيره المادي. . وردّ براين تيرنر على ماكس فيبر زعمه ذلك في كتابه «علم الاجتماع والإسلام»، بأن الفقرات التي يفسر بها الإسلام: «محشوة بالعداء والكراهية وعدم التذوق الشخصي».

إن الجهاد كان في سبيل الله، وإن كانت هناك نقاط ضعف في العصور المتأخرة، وموازنة بين أخلاق الحرب بين المسلمين وغيرهم تبين خصوصية هذا الجهاد وتميزه بأنه لا يريد القهر والسلب، بل لدفع الظلم، ومنع الفتنة، وبسط الأمن والعدل، مع تحريم الغدر والخيانة والتمثيل والتحريق والتعذيب وقتل النساء واغتصابهنّ، والنهي عن قتل الأطفال والأسرى وقتل الجرحى والإجهاز عليهم وقطع الأشجار إلا لضرورة نقارنه بمشهد من تاريخ العالم يذكره ليكي: «إن أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل رومه، وأعظم تسلية ومتعة لهم، كان حين يسقط الجريح في مبارزة أحد الأبطال من بني جنسه أو مصارعة سبع ضارٍ يتشحط في دمه، هنالك كان يفلت الزمام، ويُغلب الناس على أمرهم، ويفقدون رشدهم، فيتهالك الحشد الحاشد وفيه النساء والأطفال

(1) محمد في مكة، مونتغمري وات، ص: 20.

والشيوخ والعجز على الدنو من هذا المنظر الرهيب والإنسان البائس الشقي، وهو من بني جلدتهم وأبناء بلادهم، ليمتعوا نفوسهم بمشاهد احتضاره، وليرنّ في آذانه أنينه.. إلخ»[1].

في العصر الحديث قوتل سكان بلاد المسلمين، وغمط حق بعض الشعوب، فردت على ذلك بما كانت عليه من تفكك، بالقلم والعمل السياسي والحسم الدفاعي.. وعسى أن لا يمزق الصف الصالح ووحدة الأمة، وأن يبقى البلد غنياً قوياً عزيزاً.. وأن يعمّ العدل الذي يحول دون تحريك شعور انتقامي، وأن تدرس خلفيّة أيّ قهر أو ظلم أو فتنة أو نقصٍ في علمٍ ديني أوجهل أو مضايقة، وأن تؤدي المؤسسات التربويّة والعلميّة والدينيّة عملها في تبصير الناشئة.

وآخرون لا يرون إلا النقاط السوداء من تاريخ المسلمين حين يجدون حالات من المكر، أو الإيذاء، أو الاغتيال، أو الوقيعة، أو دسّ السم، أو الاقتتال الداخلي الذي لم يكن حرباً دينيّة بل خلافاً حول أفضل وسيلة للحكم، تجاوز به البعض أمراء حرب أو دهماء أو الرتل الخامس وطابور الشانئين إلى البغي والاغتيال.

وقد روي عن علي رضي الله عنه أنّه في حرب صفين إنّما أراد أن يردهم إلى الجماعة الأحسن حكماً والأصوب رأياً، وليس ذلك من آفات الإسلام، بل هو الدغل الذي يعلق بكل طائفة تسعى للإصلاح في دنيا البشر ويغلب بعنفه وثقله وفتنته وأكثريّته على عزم الأخيار فتطبع فئة معيّنة بالبغي؛ إذ نجد أضعاف ذلك في تاريخ العالم غير الإسلامي، ولدى من فصل الدين عن الدولة، وآلات التعذيب الحديثة لم يخترعها المسلمون، ولا ولم يستعملها الصالحون من أولي أمرهم.. ولقد بلغ مجموع من قتل من المشركين واليهود في حربهم

(1) السيرة النبوية، الندوي ص: 466.

مع المؤمنين 203، وعدد المسلمين القتلى 183، عدا بني قريظة الذين حوكموا قضائيّاً بمن رضوا به حكماً بعد خيانتهم العظمى.. أمّا ضحايا حروب العهد القديم من غير اليهود فقد قدروا بـ «1635650»، ومن اليهود «352827».

أمّا ما يذكر من إيذاء المكونات الدينيّة أو أهل الكتاب أو أهل الذمة فكما يقول «جورج قرم» ويلخّصه د. «محمد عمارة» كان من عواملها: «المزاج الشخصي المختل لحكام اضطهدوا الأغلبيّة مع الأقليّات، والظلم الذي مارسته الزعامات والقيادات النصرانيّة واليهوديّة التي تولت الوزارة، وقبضت على جهاز الدولة المالي والإداري، والتي كانت سوط عذاب للأقليّات الفقيرة من المسلمين الأمر الذي ولّد أفعالاً وفتناً لم تقف عند الذين ظلموا وحدهم دون سواهم.. واستجابة قطاعات محدودة من أبناء الأقليّات للغواية»[1].

(1) الغرب والإسلام.. أين الخطأ؟ وأين الصواب؟، د. محمد عمارة، ص: 45، ط 1 سنة 2004، مكتبة الشروق العالميّة، القاهرة.

من مراجع الكتاب

- إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ط4، سنة 1999، دار النفائس، عمان.
- أبو بكر الباقلاني «القاضي» بن الطيب، ت 403 هـ، إعجاز القرآن، ط 3، البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1951.
- أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عاصم الحداد، الدار العربية، بيروت.
- أبو الحسن علي الحسني الندوي، روائع إقبال، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط 1999.
- أتيين دينيه، محمد رسول الله، ترجمة د. عبد الحليم محمود، بلا تاريخ.
- أحمد بن عبد الحليم (ت 728) ابن تيمية، المعجزة وكرامات الأولياء، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق مصطفى عبد القادر.
- أحمد شوقي الشوقيّات، صفوة المؤلفات الكاملة، مكتبة لبنان، بيروت، ج1.
- أحمد فوزي، رجال فكر وقانون، مطبعة الانتصار، بغداد، ط1 - سنة 1985.
- النبوات، المطبعة السلفية، القاهرة.
- إزوالد إشبنجلر، تدهور الحضارة الغربية، ط دار مكتبة الحياة، بيروت.
- أسبيركن وياخوت، أسس المادية الديالكتيكية، دار التقدم، بيروت.
- إسحق دويتشر، ستالين، ترجمة فواز الطرابلسي، ط1، دار الطليعة، بيروت، سنة 1969.
- أغسطس روهلنج، الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف نصر الله، ص 53، مطبعة المعارف، ط1، سنة 1889.
- أكرم ضياء العمري السيرة النبويّة الصحيحة، ج1، ص 95، ط3، 1993. مكتبة العلوم الحكم، المدينة المنورة.

- ألبان ويدجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ، ترجمة ذوقان قرقوط، دارالقلم، بيروت، سنة 1972.
- الحسين بن المبارك، «الزبيدي»، التجريد الصريح، المطبعة الأزهرية، القاهرة.
- براين تيرنر، علم الاجتماع والإسلام، ترجمة د. أبو بكر أحمد، ط1، دار القلم، بيروت، سنة 1987.
- مذكرات تشرشل، ترجمة خيري حماد، مكتبة المثنى، بغداد، سنة 1962.
- توماس كارليل، الأبطال، ترجمة د. محمد السباعي، ط4، دار الرائد، بيروت، سنة 1982.
- أحمد ديدات، الاختيار بين الإسلام والنصرانية،ترجمة أكرم ياسين الشريف، ط1، سنة 2008، مكتبة العبيكان، الرياض.
- إميل درمنغهم، حياة محمد، ترجمة عادل زعيتر، ط 2، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، سنة 1949.
- جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي ت (911هـ) - الإتقان في علوم القرآن، ط3، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، سنة 1951.
- د. جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، السيرة النبوية، مطبعة الزعيم، بغداد، سنة 1961.
- د. حاكم المطيري، الحرية أو الطوفان، ط1، 2004 - المؤسسة العربية للدراسة والنشر، بيروت.
- د.حسن أحمد عيسى، الإبداع في الفن والعلم، ط1، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت.
- د. خليل أحمد خليل، جدلية القرآن، ط1، دار الطليعة، بيروت، سنة 1971.
- خليل عبد الكريم، الإسلام بين الدولة الدينية والدولة المدنية، ط1، سنة 1995 - سينا للنشر - القاهرة.
- خودابخش، الحضارة الإسلامية، ترجمة حسني علي الخربوطي، دار إحياء الكتب العربية، سنة 1960.
- روجيه غارودي، حفّارو القبور، ترجمة رانيا الهاشم، ط1، سنة 1993، منشورات عويدات، بيروت.

- زكي نجيب محمود، أسس التفكير العلمي، ط1، دار المعارف بمصر.
- سعيد حوى، الرسول، مكتبة وهبة، القاهرة.
- في ظلال القرآن، سيد قطب
- د. زينب عبد العزيز، الإلحاد وأسبابه، الصفحة السوداء للكنيسة، دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة ط1 - سنة 2004.
- سليمان الندوي، الرسالة المحمدية، ط3، دار الفتح، دمشق، سنة 1973.
- د. صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط4، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1965.
- عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار الهلال، مصر، سنة 1966.
- عبد الأحد داود، محمد في الكتاب المقدس، ترجمة فهمي شما، رئاسة المحاكم الشرعية في قطر، سنة 1985.
- عبد الحميد صديقي، تفسير التاريخ، كاظم الجوادي، الدار الكويتية، عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي، دار الكتب، بيروت، سنة 1982.
- د. عبد الغني عماد، صناعة الإرهاب .. في البحث عن موطن العنف الحقيقي. دار النفائس، ط1، سنة 2003، بيروت.
- الدكتور التيجاني عبد القادر حامد، أصول الفكر السياسي في المجتمع المكي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار البشير للنشر، عمان، سنة 1995.
- د. عبد الودود شلبي، هل انتشر الإسلام بالسيف؟ .. حوار تاريخي مع نخبة من السياسيين والباحثين في تاريخ الأديان والحضارات، سيدني، أستراليا، دار الفتح للإعلام العربي، القاهرة.
- د. عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، ط1، سنة 2002.
- عبد الوهاب النجار، قصص الأنبياء، مطبعة المدني، القاهرة، سنة 1966.
- عثمان عمر سنكاوي، الرسول ﷺ في قلوب الكرد، السليمانية، ط1، سنة 2002.
- عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1964.

- علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام) دار المدى، ط 2004، سورية، دمشق.
- د. عمرو الشوبكي، د. رفعت السيد أحمد، مستقبل الحركات الإسلامية بعد 11 أيلول، دار الفكر، بدمشق، ط1، سنة 2005.
- فاخر عاقل، الإبداع وتربيته، ط2، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1979.
- د. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة رقم 149، سنة 1990، الكويت.
- فهمي هويدي، تزييف الوعي، ط3، سنة 1999، دار الشروق - القاهرة -.
- فهمي هويدي، المفترون خطاب التطرف العلماني في الميزان ط2، دار الشروق - القاهرة.
- كارل بروكلمان، العرب والإمبراطورية العربية، ترجمة نبيه أمين، ومنير البعلبكي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1960.
- د. كمال السعيد حبيب، الأقليّات والسياسة في الخبرة الإسلاميّة من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانيّة، ط1، سنة 2003، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- لورافيشا فاغليري، دفاع عن الإسلام، ترجمة منير البعلبكي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، سنة 1976.
- مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ترجمة د. عفيف دمشقية، ط سنة 1980، دار الآداب، بيروت.
- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط3، دار الفكر، بيروت، سنة 1968.
- مجموعة من الكتاب، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مطبعة التربية، الرياض، سنة 1985.
- د. محمد أركون، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، ترجمة هاشم صالح، ط1، سنة 1999، دار الساقي، بيروت.
- محمد إقبال، من مثنويات محمد إقبال، ترجمة يوسف عبد الفتاح، مراجعة محمد علاء الدين، سنة 2002، القاهرة.

- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط7 سنة 2001، ، دار النفائس، بيروت.
- محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط2، مكتبة القاهرة، سنة1964.
- د. محمد عبد الله دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، القاهرة.
- د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، القاهرة.
- د. محمد شحرور، دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع، دمشق.
- محمد عبده، الأعمال الكاملة، تقديم وتحقيق د. محمد عمارة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 1972.
- محمد عبده، رسالة التوحيد، ط17، دار المنار، القاهرة، سنة 1376 هـ.
- محمد كمال جعفر، الإنسان والأديان، ط، 1 دار الثقافة، مصر، سنة 1985.
- محمود صادق - دار أخبار اليوم - سنة 2002 الإخوان المسلمون . . الأزمة والتشتت.
- د. مراد هوفمان، الإسلام في الألفية الثالثة، مكتبة العبيكان، تعريب عادل المعلم، يسّ إبراهيم، ط1 سنة 2003، الرياض.
- د. مراد هوفمان، الرحلة إلى مكة، ط سنة 2001، مكتبة العبيكان، الرياض.
- د.مراد هوفمان، الرحلة إلى الإسلام، ترجمة د. محمد سعيد دباس، ط2، 2006، العبيكان، الرياض.
- مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم من الله رب العالمين.
- مكيافلي، الأمير، تعريب خيري حماد، ط1، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981.
- موريس بوكاي، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ط4، دار المعارف، بيروت، سنة 1977.
- نايف منير فارس، الإعجاز العلمي في القرآن والسنة،ط1، دار ابن حزم في بيروت ومكتبة ابن كثير في الكويت، سنة 2006.
- نظمي لوقا، محمد الرسالة والرسول، ط1، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، سنة 1959.

- أبو بكر حواري، محمد، دار الهلال، القاهرة.
- د. نوري جعفر، الفكر طبيعته وتطوره، ط2، مكتبة التحرير، بغداد، سنة 1977.
- هنري ماسّيه، الإسلام، ترجمة بهيج شعبان، ط2، سنة 1977، منشورات عويدات، بيروت.
- ول ديورانت، أبطال من التاريخ.. مختصر قصة الحضارة، ترجمة سامي الكعكي، سمير كرم، مراجعة عمر الأيوبي، ط دار الكتاب العربي، بيروت.
- فضح التلمود .. تعاليم الحاخاميّين السريّة، دار النفائس، بيروت، ط1، سنة 1991.